

الفصل الأول

في نهايتي توجد بدايتي ... هذا تعبير سمعت الكثير من الناس يقولونه .
ولكن ما معناه ؟

هل توجد نقطة معينة يستطيع أن يضع الإنسان إصبعه فوقها ويقول :

" بدأت القصة ذلك اليوم في ذلك المكان والزمان ومع ذلك الحدث ؟ "

هل بدأت قصتي عندما وقع بصري على إعلان لبيع بيت " القلاع بالمزاد؟
كانت في الإعلان صورة للبيت الثمين الذي يرجع تاريخه إلى ثمانين وربما إلى
مائة عام .

لم أكن أعمل شيئاً محمداً " كنت أسير في الشارع الرئيسي " لكنجستون
بيشوب " مكان لا أهمية له . عندما رأيت الإعلان ... لماذا ؟
أهي إحدى لعب القدر ؟ أم أنها ضربة من ضربات الحظ التي لا تتكرر
مرتين؟

يمكنك أن تنظر إلى الأمر من كلا الاتجاهين . أو ربما تستطيع أن تقول : إن
اللقاء مع " سانتونكس " كان نقطة البداية ... أستطيع أن أغضض عيني وأراه
.. بخديه المتوردين وعينيه اللامعتين وحركة يده الرقيقة وهو يرسم ويصمم
خرائط المباني بأبعادها وارتفاعاتها . بيت واحد على وجه الخصوص ... بيت
رائع .. بيت يكون رائعاً عندما تمتلكه .

كان حديثي مع " سانتونكس " يدور حول ذلك البيت الجميل ... كان حلماً
جميلاً يتركز حوله حديثنا . البيت الذي سوف يبنيه لي " سانتونكس " لو أن
الأجل امتد به إلى أن يتحقق الحلم .

البيت الذي أعيش فيه مع الفتاة التي أحببتها . وكما يقولون في قصص
الأطفال : " نعيش في سعادة أبدية " هكذا بدأ الأمر معي .. الشوق إلى شيء
ليس من المحتمل أن أناله قط . إذا كانت هذه قصة حب - وهي كذلك - فلماذا
لا أبدأ من حيث رأيت " إيللي " لأول مرة واقفة بين أشجار الشربين في أرض
الغجر ؟ أرض الغجر . نعم . ربما كان من الأفضل أن أبدأ من هناك بعد قراءة

إعلان المزاد . رأيت رجلاً شيخاً من أهالي المنطقة وسألته :

- كيف رأيت هذا البيت المسمى بـ " القلاع " ؟ نظر إلي الشيخ نظرة غريبة

وقال : إن أهالي المنطقة لا يعرفونه بهذا الاسم " وإنما بـ " أرض الغجر "

وعندما سألته عن سبب هذه التسمية قال :

لذلك قصة لا أعرفها تماماً فالأقوال تختلف .. على أية حال يقع البيت في

المكان الذي تحدث فيه الحوادث .

- حوادث السيارات ؟

- كل أصناف الحوادث ... معظمها اليوم حوادث سيارات ... إنه ركن ملعون

.. أوصى المجلس القروي بوضع لافتة تحذر من الخطر . ولكن بالرغم من ذلك

تقع الحوادث وسألته : لماذا الغجر ؟

- يروى أن الأرض كانت للغجر في وقت من الأوقات وعندما طردوا منها

أطلقوا عليه اللعنة . ضحكت . وقال الشيخ : إننا رجال المدن نضحك لأننا

لا نعرف أن بعض الأماكن ملعونة حقاً . وأن اللعنة قد حلت على ذلك المكان ..

وقد لقي البعض مصرعهم وهم يكسرون الحجارة من الحجر للبناء ، أشار

الشيخ نحو التل المغطى بأشجار الصنوبر قائلاً :

- هناك لقي " جيوردي " الشيخ مصرعه ... في أرض الغجر . نعم أعتقد

أن هذه كانت البداية .. عندما أرتب الذكريات في ذهني .. لا أدري ما إذا كنت

سألت وقتها أو بعد ذلك عما إذا كان الغجر لا يزالون يعيشون في المنطقة .

وأخبرني الرجل أن عددهم لم يعد كبيراً لأن رجال الشرطة دائماً يضطرونهم

إلى الرحيل، وقلت :

- لماذا لا يحب أحد الغجر ؟

إنهم أسيوف .. هل أنت واحد ممن تجري في عروقهم دماء الغجر ؟

أبتاه بالفي ، وفكرت في أن الرجل كان على حق في تفكيره لأنني أشبه

الغجر ..

وقد كان ذلك الذي جذبني لاسم أرض الغجر ...

عقدت الطريق التي تؤدي إلى التل لكي أتمكن من مشاهدة البحر والسفن ..

ومن الأفضل أن يتركوها وشأنها .. سوف تري أن أحدا لا يحالفه الحظ في هذا المكان .

ضحكت العجوز مرة ثانية وقالت بحدة :

- لا تسخر أيها الشاب . لم يجد الحظ له مكانا هنا .. لا في البيت ولا في الأرض .

- ما الذي حدث في البيت ؟ لماذا ظل خاليا لمدة طويلة ؟ لماذا تركوه إلى أن تهدم ؟

-آخر الناس الذين عاشوا فيه .. ماتوا جميعا ...

سألتها بفضول : كيف ماتوا ؟

- من الأفضل ألا نتكلم في هذا الموضوع ...

قلت لها : إنها تستطيع بالرغم من ذلك أن تروي القصة ... تغيرت لهجتها وهي تقول برجاء : - ما رأيك في أن أقرأ طالعك أيها الفتى ؟ ضع في يدي عملة فضية .. أنت واحد ممن ستحقق لهم آمال كبيرة ذات يوم .. - قلت لها إنني لا أؤمن بقراءة البخت وليس معي عملة فضية ، قالت إنها على استعداد لقراءة طالعي مقابل ستة بنسات فحسب . ناولتها ستة بنسات وتأملت النقود برهة ثم أخذت كفي بين يديها وظلت صامتا برهة ، ثم دفعت يدي بعيدا وهي تقول بخشونة :

- إذا كنت تعرف صالحك فاترك أرض الفجر الآن ، ولا تفكر في العودة إليها مرة أخرى ! عندما سألتها عن السبب قالت :

- لأنك إذا عدت فسوف تجد الأحزان والخطر في انتظارك .. انس أنك رأيت هذا المكان .. إنني أحذرك .

قالت ذلك وانسحبت نحو الكوخ وشفقت الباب وراعا بعنف .. لست إنسانا منشائما .. إنني أؤمن بالحظ .. ولكن داخلني إحساس بعدم الارتياح لما قرأته العجوز في كفي ... إنني أعتبر قراءة البخت مجرد عبث ووسيلة للحصول على النقود من الأغبياء .. ألقى نظرة أخيرة على إعلان المزاد ... لم يسبق لي أن حشرت مزادا لبيع أحد البيوت ولكنني حضرت في هذه المرة لكي أرى

لقد كان المنظر رائعا وفكرت في نفسي وأنا أمتلك هذا المكان .. أرض الفجر - كانت فكرة سخيفة - وعندما مررت بالشيخ في طريق عودتي قال لي :

- إذا كنت ترغب في رؤية الفجر . فهناك المسز " لبي " العجوز .. أعطاها الميجور كوخا لتعيش فيه .. وسألكه عن يكون ؟ وقال الشيخ بدهشة :

- الميجور " فيليبوت " طبعاً لا أعرفه !

أدهشه أنني لا أعرف الميجور ، وفهمت أن الميجور هو الرب المحلي .. وأن أسرة " فيليبوت " عاشت هنا منذ أجيال طويلة ... تمنيت للشيخ يوماً طيباً ، وهممت بالانصراف عندما قال :

- يقع كوخ العجوز . في نهاية الشارع ... ربما رأيته أمام باب كوخها ... لا تحب البقاء بالداخل . هذه عادة الفجر . مشيت وأنا أفكر في أرض الفجر . وكدت أنسى ما قيل لي .. عندما رأيت امرأة عجوزاً طويلة سوداء الشعر . تحملق في وجهي وراء سور حديقة .. أدركت على الفور أنها المسز " لبي " .. توقفت لأتحدث معها وقلت : سمعت أنك تستطيعين أن تحدثيني عن ذلك البيت .. " أرض الفجر " فقالت وهي تزيج خصلة متهدلة من شعرها :

- لا شأن لك بذلك أيها الشاب ... استمع إلي ... أنت فتى حسن المظهر .. لاخير يأتي من وراء أرض الفجر .

- أليس البيت معروضاً للبيع ؟

- نعم .. وأحمق ، ذلك الذي يفكر في شرائه .

- من الذي يفكر في شرائه ؟

- أحد البنائين .. أكثر من واحد ... سوف يباع بثمن زهيد ...

سألتها بفضول : ولماذا يباع بثمن رغبم أن الموقع ممتاز

لم تجب عن هذا السؤال ، وقلت لها :

- لنفترض أنه يبيع بثمن زهيد ... ما الذي سوف يفعله المشتري بالبيت ؟ ضحكت العجوز ضحكة ممقوتة وقالت :

- سوف يهدم البيت القديم ليبنى عشرين .. وربما ثلاثين بيتاً مكانه .. ولكن اللعنة سوف تحل عليها كلها .. لن ينال أي إنسان خيراً من أرض الفجر ..

الدرجة الثالثة؟ وحارسا للشاطئ في الصيف... وعملت بانعا لدوائر المعارف
والمكانس الكهربائية وغيرها... واشتغلت ذات مرة في حديقة، واكتسبت بعض
المعلومات عن الأزهار. لم أمكث كثيرا في أي وظيفة.. ولماذا أفعل؟ كنت أجد
متعة في أي عمل أزاوله... كانت بعض الأعمال تحتاج إلى جهد أكثر من
غيرها ولكنني لم أكتثرت لذلك.. لم أكن في الواقع كسولا.. ولكنني كنت سريع
الملل. أحب أن أذهب إلى أي مكان وأرى كل شيء... وأن أفعل كل شيء...
أريد أن أكتشف شيئا جديدا.. نعم.. هذه طبيعتي.. أريد أن أكتشف شيئا.
كنت أثناء الدراسة أترك المدرسة بين الحين والحين لأبحث عن شيء...
ولكنني لم أكن أعرف في ذلك الوقت ما هذا الشيء. ولكن هذا الشيء موجود
في مكان ما... وسوف أعرف عنه كل شيء إن عاجلا أو آجلا. ربما يكون
فتاة... أنا أحب الفتيات... ولكنني لم أر أهمية لأي فتاة التقيت بها.. كنت
أحب الواحدة ولكنني سرعان ما أبحث عن غيرها.. مثل الوظائف تماما..
وهكذا ظلت أنتقل من شيء إلى آخر منذ تركت الدراسة.

لم يوافق كثير من الناس على أسلوب حياتي.. ربما لأنهم لم يكونوا
يعرفونني جيدا.. كانوا يريدون مني أن أعرف فتاة واحدة وأوفر المال لكي
أزوجهها وأستقر في عمل جيد... ولكنني كنت أرى العالم الذي وضع فيه
الإنسان الأعمار الصناعية في السماء.. والتفكير في السفر إلى الكواكب..
لا بد إذن من وجود شيء يخفق له قلبك ويستحق منك أن تبحث عنه ولو طفت
الكرة الأرضية كلها. أذكر ذات يوم.. في الفترة التي كنت أعمل فيها نادلا..
التي كنت أسير في شارع "بوندي" ووقفت أمام فترينة محل لبيع الأحذية
القارية الثمن.. ورأيت في الفترينة المجاورة ثلاث لوحات.. لست من هواة
الفنون وأم أذهب إلى المتحف في حياتي سوى مرة واحدة بدافع الفضول.
كانت اللوحة الأولى لمنظر طبيعي، والثانية لسيدة ولكن الأبعاد غير متناسبة
بشيء يذكر. شكل السيدة مشوها ويكاد يصعب تمييز أنها سيدة.. أما الثالثة
فكانت عبارة عن مجموعة من الدوائر.. وكل دائرة ملونة بلون صارخ يتنافر بشكل

الشخص الذي سيشتري "القلاع" .. أو بمعنى آخر لأنها متعة أن أرى
صاحب أرض العجر... أعتقد أن هذه كانت نقطة البداية... خطر على ذهني
خاطر غريب.. سوف أحضر وأدعي أنني جئت للاشتراك في المزايا.. أن
أزاد على البنائين الذين حضروا ليشتروا البيت بثمن بخس... سوف أخيب
أمالهم وأشتري البيت وأذهب إلى "رودلف سانتونكس" قائلا له: تعال وابن لي
بيتا.. لقد اشتريت لك الموقع إذ سوف أعثر على فتاة... فتاة رائعة لتعيش
معا في سعادة أبدية.. كانت تراودني في العادة مثل هذه الأحلام.

ومن الطبيعي أن تعضي تلك الأحلام دون أن تتحقق.. ولكنني كنت أجد فيها
متعة.. متعة يا إلهي! أه لو أنني كنت أعرف الغيب!

كانت مجرد مصادفة تلك التي أحضرتني إلى الأرض المجاورة لبيت "أرض
العجر" .. كنت أقود سيارة مستأجرة للذهاب ببعض الناس لحضور مزاد في
لندن.. ليس لبيع بيت وإنما لبيع محتوياته.. كان منزلا كبيرا قبيحا يقع في
أطراف المدينة.. كان الراكبان زوجين عجوز وهرم سمعتهما يتحدثان عن شراء
مجموعة من الورق المعجن... المرة الوحيدة التي سمعت فيها عن الورق المعجن
من أمي التي كانت تقول إن غسل الأواني المصنوعة من ذلك الورق أفضل من
غسل أواني البلاستيك..

تعجبت لرغبة قوم أثرياء في شراء مجموعة من ذلك النوع... اختزنت تلك
الحقيقة في ذاكرتي حتى أقرأ شيئا عن الورق المعجن الذي يتكبد الأثرياء من
أجله كل هذه المشقة... كنت في الثانية والعشرين من عمري وأحب جمع
المعلومات عن الأشياء... كنت أعرف الشيء الكثير عن السيارات والميكانيكا
والقيادة... اشتغلت في "إيرلندا" ذات يوم في مجال الخيول وكنت أتورط مع
إحدى مصابيات المخدرات ولكنني كنت عاقلا ونجوت بنفسني في الوقت
المناسب.. لم تكن وظيفة قائد سيارة لإحدى شركات تأجير السيارات الفاخرة
بالشيء السني... كنت أحصل على كثير من المال ولكن العمل نفسه كان
مملًا... عملت ذات صيف في جمع الفواكه وكان الأجر قليلا... ولكنني
استمتعت بالعمل. جربت العديد من الأعمال... عملت نادلا في فندق من

والاستثمارات يكاد القلق يقتلهم ... كذلك حياتهم الجنسية ليست دافئة . فإما ترى الواحد منهم متزوجا من شابة حسناء شقراء تلهو في مكان ما مع عشاقها أو تكون الزوجة من ذلك الطراز الذي لا يكف عن الشكوى وتحيل حياة الزوج إلى جحيم .. كلا .. أنا لا أحسدكم وأفضل أن أكون أنا .. مايكل روجرز " الذي يحب أن يرى الدنيا ويصاحب اللتيات الحسان كلما أراد ذلك .. كانت مواردني تكفينني بالكاد ... ولكنني كنت أرى الحياة لها ومتعة وكنت قانعا بذلك .. ولكنني كنت أعرف أن الشباب عندما يتجاوز مرحلة اللهو لا تصبح الحياة عنده مجرد لهو واستمتاع .. وراء ذلك كله كان هناك دائما شيء آخر .. الاشتياق إلى شخص ما .. وشيء ما .. على أي حال ... تكلمة لما كنت أقوله .. كان هناك رجل شيخ اعتدت أن أذهب به إلى " الريفيرا " ليشرف على بيت كان يبنيه هناك .. وكان " سانتونكس " هو المهندس .. ظننت " سانتونكس " إنجليزية في البداية ولكن اتضح أنه إسكندنافي ... كان شابا معتل الصحة نحيلًا للغاية غريب الوجه .. كان وجهه معوجا بشكل ما .. لم يكن نصفا الوجه متعالمين .. كان سيئ الخلق مع زبائنه .. كان يتقاضى مبالغ ضخمة وكان وثقا من نفسه ..

سمعت الفتى الشيخ ذات مرة يصرخ في وجه " سانتونكس " قائلا إنه يصرف أكثر من المتفق عليه ؟ وقال له المهندس محتدا :

" هذا صحيح .. ولكن المال ينبغي أن يصرف .. وقال الشيخ :

يجب أن تتصرف في حدود الاتفاق ..

وقال " سانتونكس " : في هذه الحالة لن تحصل على البيت الذي تريده .. وسوف يكون البيت الذي أبنيه هو الذي تريده .. لا تتصرف ببخل مثل رجال الطريقة الوسطى .. عندما أنتهي من بيتك سوف يكون مفخرة لك وسوف يسهل عليك صدقاتك .. قلت لك من قبل إنني لا أبنى بيتا لأي إنسان .. ولن يكون بيتك مثل بيوت الآخرين سوف يكون فظيما .. فظيما ...

أوه .. كلا .. المشكلة أنك لا تعرف ما تريده .. أو بمعنى آخر أنت لا تعرف ما تريده .. ولكنني أعرف .. أنت تريد الكيف وسوف أعطيك الكيف ..

غريب مع اللون المجاور .. وهنا وهناك بقع لونية لا يبدو أنها تعني شيئا .. ورغم هذا فقد خيل إلي أنها تقول شيئا ... إنني لا أجيد الوصف ؟ ولكن كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني كنت أشعر برغبة شديدة في تأمل اللوحة . وقفت طويلا أتأمل الصورة وأنا أفكر .. فلنفترض أنني اشتريت هذه اللوحة .. كم يبلغ ثمنها .. عشرون ؟ خمسة وعشرون جنيتها ؟ دخلت المحل بثبات ورحب بي صاحب المحل وأخبرته برغبتني في مشاهدة اللوحة عن قرب ، وأحضر الرجل اللوحة وأمسكها لي لأتأملها كما أشاء ، وسألته أخيرا :

كم ثمن هذه اللوحة ...

- خمسة وعشرون ألف جنيه !

هزرت رأسي وأنا أقول له : إنه مبلغ ضخم ... ولكنني أعتقد أن اللوحة تستحق هذا الثمن !

- نعم ... أنت صاحب ذوق رفيع ...

خيل إلي أن كل واحد منا فهم الآخر جيدا ... شكرته وخرجت إلى الشارع .. لا أعرف الشيء الكثير عن الكتابة .. أعني الكتابة بالأسلوب السليم .. اللوحة التي رأيتها على سبيل المثال .. في الواقع ليس لها صلة بأي شيء .. أعني أنها لا تثير أي أفكار ، ورغم ذلك فإني أراها مهمة على وجه ما .. إنها كواحدة من الأمور التي وقعت لي وتعني شيئا .. تماما مثل أرض العجر التي كانت تعني شيئا بالنسبة لي ... كما أن " سانتونكس " يعني شيئا بالنسبة لي ...

لم أذكر عنه الشيء الكثير .. هو مهندس ولا شك أنك قد خمنت ذلك .. لم تكن لي صلة بالمهندسين رغم أنني أعرف بعض الأشياء عن البناء .. التقيت بـ " سانتونكس " أثناء واحدة من رحلاتي .. كنت أعمل سانتا أذهب بالأغنياء إلى حيث يرغبون .. ذهبت مرة أو مرتين إلى ألمانيا .. وأنا أعرف بعض الألمانية .. كذلك ذهبت إلى فرنسا وأستطيع أن أتحدث قليلا بالفرنسية ... كما ذهبت مرة إلى البرتغال .. كان زبائني من المسنين الذي يملكون الكثير من المال والقليل من الصحة .. عندما تصحب قوما كهؤلاء تدرك أن المال ليس كل شيء .. كان معظم من رأيتهم من الأغنياء تعساء للغاية ... كانت لهم همومهم .. الضرائب

موجود .

قلت له بمرارة : عندما يستيقظ طموحي وأحصل على المال فسوف آتي إليك لتبني لي بيتا ..

تنهد " سانتونكس " وقال :

- لا أستطيع الانتظار ... كلا .. لا أستطيع الانتظار .. لن أعيش طويلا .. ربما عشت الفترة التي تسمح لي ببناء بيت أو بيتين على الأكثر ...

- سوف أستحث طموحي لكي يستيقظ بسرعة .

- كلا .. أنت تتمتع بصحة جيدة .. وتستمتع بحياتك .. لا تغير أسلوبك في الحياة .

وقلت : لا أستطيع ولو حاولت ...

فكرت وقتها في أن ذلك صحيح .. فقد كنت أحب طريقة حياتي وما أحصل عليه من متعة ... كانت صحتي جيدة .. وكنت أقود السيارة للأغنياء الذين يملكون المال الكثير الذي اكتسبوه من وراء العمل الشاق .. ولكن العمل الشاق يسبب لهم كذلك في أمراض القلب وغيرها من الأمراض .. لم أكن أرغب في إرهاق نفسي بالعمل .. لم يكن لدي طموح أو هذا ما خيل إلي ... ولكنني أعتقد أن " سانتونكس " كان طموحا .. لم يكن رجلا قويا وكنت أرى طموحه يدفعه إلى قتل نفسه .. باختصار لم أكن أحب أن أعمل .. كنت أشك في العمل وأكرهه وأفكر أنه من الأمور السيئة التي اخترعها الإنسان لنفسه .. كثيرا ما كنت أفكر في " سانتونكس " .. كنت أفكر فيه أكثر من أي إنسان آخر .. من العرب الأمور في الحياة أن بعض الأشياء تظل عالقة بالذاكرة .. أعتقد أن الإنسان يختار الأشياء التي يتذكرها .. كان " سانتونكس " والبيت واللوحة التي رأيتها في شارع " بوند " وزيارة البيت المتهم .. القلاع .. وقصة أرض الفجر .. كانت كل هذه الأشياء هي التي اخترت أن أتذكرها ...

كان إحساس غريب لا يزال يراودني بأنني أنتظر شيئا ... وأنني في انتظار شيء يقدم لي أو يحدث لي ، لا أعرف كيف أصف هذا الإحساس . أعتقد أنني كنت أبحث عن فتاة ... الفتاة المناسبة .. لا أعني بذلك الفتاة المناسبة

كان معتادا على أن يقول أشياء كهذه .. وأظن واقفا أستمتع .. وكان يداخلني إحساس بأن هذا البيت الذي يبنيه بين أشجار الصنوبر مطل على البحر ، سوف يكون بيتا غير عادي .. لم يكن نصف البيت يطل على البحر وفقا للأسلوب التقليدي وإنما كان يطل بزاوية على الجبال ...

أو على وجه أصح على زرقة السماء التي تبدو بين التلال ... كان شيئا غريبا وغير عادي ...

كان " سانتونكس " يقول لي أحيانا : إنني لا أبني البيوت إلا للناس الذين أحب أن أبني لهم ... وسألته عما إذا كان يقصد الأغنياء ، فقال : إنهم لابد أن يكونوا أغنياء ولكن المال ليس هو هدفه الوحيد ، وإنما ينبغي أن يكونوا أغنياء ليتحملوا النفقات الباهظة التي تتطلبها البيوت التي يبنيها .. فهو يتسلم الموقع وذلك لا يعني شيئا .. ولكن البيت بعد ذلك يصبح جوهرة فريدة .. ضحك وسألني هل تفهم ما أقوله ؟

قلت له ببطء : أعتقد ذلك .. ومع هذا .. أعتقد أنني أفهمك إلى حد ما .. ذهبنا مرة أخرى لزيارة البيت الذي كاد يكتمل وإن أستطيع وصفه .. ولكنه كان شيئا خاصا متميزا .. بيتا يفخر به صاحبه ويحب أن يريه للناس .. وقال لي " سانتونكس " ذات يوم فجأة :

- أنت تعلم أنني أستطيع أن أبني بيتا لك .. إنني أعرف نوع البيت الذي تريده ..

وقلت له بأمانة : أنا شخصيا لا أعرفه ...

- ربما لم تكن تعرفه .. ولكنني سوف أعرفه نيابة عنك ...

سكت برهة ثم قال : ما يؤسف له حقا أنك لا تملك أي مال ..

وقلت : ولن أملك ما لا قط ..

- لا تستطيع أن تجزم بذلك .. ليس معنى أنك ولدت فقيرا أنك ستبقى فقيرا على الدوام .. للمال نزوات .. إنه يذهب لمن يسعى إليه ...

- لست أملك القدرة الكافية .

- ليس لديك الطموح الكافي .. لم يستيقظ الطموح في أعماقك بعد .. ولكنه ..

الفصل الثاني

لم أنس خطتي في الذهاب إلى المزاد ... كانت أمامي مهلة ثلاثة أسابيع وكان علي أن أذهب في رحلتين إلى القارة .. واحدة إلى فرنسا والأخرى إلى ألمانيا .. حدثت الأزمة وأنا في ألمانيا .. كنت أصحب زوجين هروا وعجوزا .. كانا سخيخين غير مهذبين وأحسست بأنني لا أستطيع الاستمرار في حياة التماق أكثر من ذلك .. ولم أستطع أن أخبرهما بأنني لا أطيق الاستمرار معهما يوما آخر .. لهذا اتصلت بالفندق الذي ينزلان فيه لأخطرهما أنني مريض وأرسلت برقية إلى الشركة التي أعمل معها قائلًا إنني أعاني حمى شديدة وقد أذهب إلى المستشفى ، وطلبت إرسال سائق آخر ليحل محلي .. وفكرت في توريث موقفي عند رجوعي إلى لندن ولكنني رأيت أنه لا داعي لذلك لأنني سئمت مهنة القيادة ...

كانت ثورتي تلك بمثابة نقطة تحول مهمة في تاريخ حياتي .. لأنني تمكنت من الذهاب إلى المزاد في يوم انعقاده ... لم يسبق لي في حياتي حضور مزاد بيع لأحد العقارات .. ومن ثم كنت أراها تجربة مثيرة ..

لم يتجاوز عدد الحاضرين بضعة أشخاص .. كان أغلبهم من القرويين .. قيل لي إن أحدهم من البنائين الذين يرغبون في شراء البيت بثمن بخس ... والأذن من المحامين ... ورجلا غريبا يرتدي ملابس أنيقة يبدو أنه جاء من لندن ... بدأ المزاد وتحدث الخبير المثمن عن مزايا البيت والأرض المحيطة به .. عرض أحدهم خمسة آلاف جنيه ، وابتسم الخبير المثمن ابتسامة شاحبة وانتهى المزاد بسرعة عندما أعلن الخبير قفل المزاد لأن العروض المقدمة لم تقبل إلى الثمن الأساسي ...

دار حوار بيني وبين القروي الذي كان يقف بجواري ... قال إن البيت سوف يباع بأقل من بخس .. سألته : هل يرجع ذلك لسمعته السيئة ؟ وسألني بدوره عما إذا كنت قد سمعت ما يروى عن أرض الغجر وأضاف .. إن على المشتري أن يهزم الروبوت ويوافق مصروفات طائلة لبناء بيت حديث ، فضلا عن أنه سيواجه

حياة الاستقرار كما كانت تقصد أمي وعمي وأصدقائي ، لأنني لم أكن أعرف الحب في ذلك الوقت .. كان الجنس هو كل ما أعرفه .. شأن كل شباب اليوم .. لم أكن أعرف لا أنا ولا أي واحد من أصدقائي شكل الحب عندما يأتي ولكن الحب على ما أعتقد يطرق الباب بطريقة مفاجئة إن عاجلا أو آجلا .. لا أعتقد أنك تقول لنفسك : " ربما تكون هذه الفتاة لي . أو .. هذه هي الفتاة التي سوف تكون لي .. أو على الأقل .. لم يكن شعوري على هذا النحو .. لم أكن أعرف أن ذلك عندما يحدث فسوف يحدث فجأة .. وأنني سوف أقول :

هذه هي الفتاة التي أنتمي إليها .. إنني لها .. إنني أنتمي إليها بكل كياني وللأبد ... كلا لم أحلم بشيء كهذا قط .. ألم يقل واحد من رجال الكوميديا مرة : " وقعت في الحب مرة .. ولو شعرت بالحب يدنو مني مرة ثانية فسوف أهاجر " . هكذا كان الحال معي .. لو أنني عرفت .. لو أنني عرفت ما سينتج عن ذلك الحب لهاجرت أنا أيضا .. هذا لو أنني كنت عاقلا ! .

- كلا .. لم تصل العروض المقدمة إلى الثمن الأساسي ... تنهدت الفتاة بارتياح وقالت : أوه ... هكذا ...
سألتها : هل كنت راغبة في شراء البيت ؟
قالت : كلا ... كلا بالتأكيد ... قالت ذلك في شيء من العصبية ... وترددت قليلا قبل أن أقول : - لا أستطيع شراء مثل هذا البيت لأنني لا أملك أي مال .. ولكنني مهتم به وأحب أن أشتريه .. لك أن تسخري مني إذا شئت ولكن هذه هي الحقيقة .

- ولكن أليس البيت متهدما بشكل خطير ؟
- أوه ... نعم ... إنني أحبه على ما هو عليه الآن ... وأرغب في هدمه لأن شكله الحالي قبيح وأعتقد أنه كان بيتا للأحزان ... ولكن المكان نفسه ليس قبيحا أو حزيننا .. إنه جميل ... انظري من هنا ... من خلال الأشجار .. تطلعي إلى المنظر حتى التلال والأرض الفضاء .. ثم تعالي وانظري من هذه الزاوية ... جذبتها من ذراعها وقدها نحو الجهة الأخرى من البوصلة .. وقلت لها :

- تستطيعين من هذه الزاوية أن تربي الصخور والبحر ... توجد بيننا وبين البحر مدينة ولكننا لا نستطيع أن نراها بسبب الصخور البارزة ... كذلك تستطيعين من زاوية ثالثة أن تشاهدي الوادي بما فيه من غابات .. هكذا ترين عند قطع تلك الأشجار فسوف يوجد مكان فسيح حول البيت ... هل ترين كم يكون المنزل رائعا لو أقيم في هذا المكان ؟ لن يكون في نفس موقعه الحالي وإنما على بعد خمسين أو مائة متر إلى اليمين ... هذه هي البقعة التي تناسب البيت الجديد ... البيت الذي يستطيع مهندس عبقرى أن يشيده ..

قالت بارتياح : هل تعرف واحدا من هؤلاء المهندسين العباقر ؟
قالت لها : نعم .. ثم بدأت أتحدث عن " سانتونكس " .. جلسنا متجاورين على دوح شجرة مينة .. وأخذت أحدثها ... نعم ... أخذت أتحدث مع تلك الفتاة اللطيفة التي لم أرها من قبل ... حدثتها عن حلمي ؟ وقلت :
... ولكنه إن تحقق ... أعرف ذلك .. فكري فيه كما أفكر فيه .. هناك نستطيع

مشكلة تعذر الحصول على خدم يعملون في ذلك المكان الريفي ...
افترقنا ... ومشيت تاركا المكان ... قادتني قدامي إلى الطريق التي تقع بين الأشجار والمنحنى الصاعد إلى الأرض السبخة ... هكذا وصلت إلى البقعة التي رأيت فيها " إيللي " لأول مرة ... كانت تقف ملتصقة بإحدى أشجار الشربين الكبيرة ... كانت نظراتها تدل على أنها شاردة اللب .. وأنها واقفة في ذلك المكان منذ بعض الوقت ... كانت ترتدي ثوبا أخضر اللون ... وكان شعرها البني الناعم الرقيق يشبه في لونه أوراق الخريف .. كان يبدو عليها لون من الضعف . توقفت عندما رأيتها ... كانت تحديق في وجهي وقد انفرجت شفاتها وظهر عليها الارتياح . ارتعت أنا الآخر للمفاجأة . وأردت أن أقول شيئا ولكنني لم أجد الكلمات المناسبة ... ثم قلت أخيرا :

- أسف .. أ .. لم أقصد أن أفزعك ... لم أكن أعلم بوجود شخص في هذا المكان .. قالت بصوت رقيق أشبه بصوت فتاة صغيرة ...
- لا بأس ... أنا بدوري لم أكن أتصور قدوم أحد إلى هذا المكان ... رأيتها ترتجف قليلا . وخيل إلي أن ذلك بسبب برودة المكان ، اقتربت خطوة منها ، وقلت لها ، إن المكان منعزل ، وكذلك البيت الذي تحول إلى أنقاض وقالت :
- تعني " القلاع " ؟ أليس هذا اسم البيت ؟ ولكن لا يبدو أنه كانت توجد فيه أي قلاع ... ربما كان ذلك مجرد اسم .. يطلق الناس مثل هذه الأسماء لكي تبدو الأشياء أكبر من حجمها الحقيقي ...
ضحكت " إيللي " ضحكة خفيفة وقالت :

- أعتقد أن الأمر كان كذلك بالنسبة للبيت ... أ ... لست متأكدة .. هل هذا هو البيت الذي كان معروضا للبيع بالمزاد ؟
- نعم .. أنا قادم على التو من المزاد
سألت الفتاة بقلق : أوه .. هل أ ... كنت مهتما بالمزاد ؟
- ليس من المحتمل أن أشتري بيتا متهدما تحيط به بضع مئات من الفدادين من الأرض السبخة .. لست واحدا من أفراد الطبقة القادرة ...
- هل تم بيع البيت ؟

خيم الصمت بيننا مرة أخرى .. أحسست بها ترتجف وعرضت عليها أن نمشي لنحتفظ بدفء أجسامنا ؟ وسألتها عما إذا كان لديها سيارة أم أنها ستعود بالحافلة أم بالقطار .

وأخبرتني أنها تركت سيارتها في القرية وخمنت أنها ترغب في التخلص مني ولكنها لا تعرف كيف ، وقلت لها :

- سوف نمشي حتى مشارف القرية ...

نظرت إلي نظرة امتنان ... وسرنا ببطء في الشارع المتعرج الذي وقع فيه الكثير من حوادث السيارات ... وعندما وصلنا إلى منعطف برزت لنا فجأة من وراء الأشجار سيدة طويلة نحيفة .. كان ظهورها مفاجئاً لدرجة أن "إيللي" فزعمت وأطلقت صرخة خفيفة كانت السيدة العجوز التي رأيتها قبل ذلك وراء سور حديقتها .. المسز "ليي" ... كانت العجوز تبدو في هذه المرة أكثر وحشية والريح تدفع شعرها الأسود بينما تغطي كتفيها بعباءة قرمزية اللون وقالت العجوز :

- ما الذي تفعلونه أيها الأعداء هنا ؟ وما الذي أتى بكم إلى أرض الغجر ؟

قالت "إيللي" بارتباك : أوه .. نرجو ألا نكون معتدين على أملاك الغير ...

- كانت هذه أرض الغجر ولقد طردونا منها ... لن تجنبوا خيرا من التجوال في أرض الغجر !

قالت "إيللي" بأدب :

- أنا شديدة الأسف إذ لم يكن من حقنا المجيء ، ظننت أن هذا المكان معروف للبيع اليوم .

- وسوف يلزم سوء الحظ أي إنسان يفكر في شرائه .. استمعي إلي أيتها الصبية ... لأنك حسناء حقا . سوف يكون سوء الحظ حليف من يشتريه ..

لقد انصرفت على هذه الأرض لعنة منذ زمن بعيد .. ابعدوا عن أرض الغجر .. إن نائي هذه الأرض بغير الموت والخطر .. ابعدوا عنا ولا تعودوا إليها قط ..

لا تقربوا بعد ذلك إنني لم أحذركم

قالت "إيللي" في شيء من العناد : زودنا عن هذا المكان في وقتنا...

أن نقطع الأشجار ونزرع الأزهار مكانها .. وقد يأتي صديقي "سانتونكس" .. أعتقد أنه سوف يسعل سعالاً شديداً لأنني أعتقد أنه مصاب بداء الرئة وأنه لن يعيش طويلاً .. ولكنه يستطيع أن يبني البيت قبل موته .. يستطيع أن يبني منزلاً رائعاً .. ليست لديك فكرة عن البيوت التي يشيدها .. إنه يبنيها للأثرياء الذي يتطلعون إلى شيء فريد من نوعه .. شيء يراه الإنسان في الأحلام ... شيء رائع ...

- أريد بيتاً كهذا ... إنك تصوره لي بحيث أكاد أحس بوجوده .. نعم ... كم يكون هذا المكان رائعاً للإقامة ... يمكن أن يتحول فيه الحلم إلى حقيقة ... يستطيع الإنسان أن يعيش هنا ويرى نفسه حراً .. غير مرتبط بالقيود التي يفرضها الناس لكي يفعل ما لا يريد ؟ ويمتنع عن عمل كل ما يحب .. أوه لقد سنمت حياتي والناس الذين يحيطون بي . سنمت كل شيء ... هكذا بدأت قصتنا .. أنا و "إيللي" معا .. أنا بأحلامي وهي بثورتها وتمردها على الحياة التي تعيشها .. توقفنا عن الحديث وكل منا ينظر إلى الآخر ...

ثم سألتني :

- ما اسمك ؟

- "مايك روجرز" ... "مايكل روجرز" ... وأنت ؟

- "فينيلا" ... ترددت برهة ثم أردفت تقول : - "فينيلا جودمان" ...

كان كل منا يشعر بالرغبة في اللقاء مرة أخرى ولكننا لم نعرف كيف نرتب ذلك .. ربما لأن لكل واحد منا أسرارته التي لا يريد أن يكشفها للطرف الآخر في الوقت الحاضر .. وقف ذلك بمثابة حاجز بيننا .. لم يكن أحدنا يستطيع أن يسأل الآخر بصراحة متى نلتقي أو أين يعيش .. لم نعرف كذلك في ذلك اليوم كيف نفترق .. كان الأمر محرجاً .. اشتدت برودة الجو ... سألتها في تردد :

هل تقيمين قريباً من هذا المكان ؟

قالت إنها تنزل في ماركت "شادويل" ... وهي قرية قريبة من المكان . أعرف أن فيها فندقاً من فئة النجوم الثلاثة ، وسألتني كذلك في تردد عما إذا كنت أقيم هنا . وأجبتها بالنفي وأنتي جنّت في زيارة لمدة يوم واحد ...

- لا أحب أن أرى ما أراه مكتوبا في كفك ...
دفعت فجأة بقطعتي النقود في يد "إيللي" وهي تتمتم بكلمات غير مسموعة
خيل إلي أنها : "إنه قاس .. قاس ذلك الذي سوف يحدث ! قالت ذلك وابتعدت
بخطا مسرعة ... وقالت "إيللي" بانزعاج :

- يا لها من سيدة مخيفة ...
قلت لها مهدئا روعها لا تكثرثي بها .. أعتقد أنها ليست عاقلة تماما .. كل ما
في الأمر أنها تريد أن تفزعك ... وأعتقد أن لدى الناس هنا شعورا خاصا
بالنسبة للبيت والأرض .

- هل وقعت حوادث هنا ؟
- نعم .. ألم تري الطرق المعوجة الضيقة ؟ يجب على المجلس القروي أن
يفعل شيئا .. لا شك أن المزيد من الحوادث سيقع لعدم وجود لافتات تحذير
كافية ...

- تعني حوادث السيارات أم أشياء أخرى ؟
بحسب الناس كثرة الحديث عن الكوارث .. هكذا تتجمع القصص عن الأماكن.
هل هذا واحد من الأسباب التي تجعلهم يقولون إن المكان سيباع بثمن
بضئ ؟

- أعتقد ذلك .. محليا على الأقل وإن كنت أعتقد أن المشتري سوف يكون من
الخارج ... أراك ترتعدين ... هيا بنا نمش بسرعة ... هل تفضلين أن أتركك
أقول عودتك إلى القرية ؟

- كلا ... بالتأكيد لا ... ولماذا ؟ قلت لها بارتباك :
- استمعني إلي .. سوف أكون غدا في ماركت "شادويل" .. أ ... أعتقد ..
لا أدري ما إذا كنت باقية هناك .. أعني ... هل توجد فرصة لكي أراك ؟

أدري وجهي الذي علتة حمرة الخجل بعيدا وقلت :
- آوه ... نعم .. لن أعود إلى لندن قبل المساء ...
- إذن ... ربما ... أ ... أعتقد أنه ربما لم يكن ...
- حسن .. تستطيع أن تأتي إلي مقهى الـ "بلودوج" لكي نشرب الشاي معا

- ولكننا لا نسبب أذى لأحد ...
قلت للعجوز : كفى ... لاتفزعني الشابة الصغيرة ...
التفت نحو "إيللي" مفسرا لها الموقف قائلا :
تعيش المسز "ليي" في القرية ... تقيم في كوخ هناك . وهي تقرأ البخت
وتتنبأ بالمستقبل .. أليس كذلك يا مسز "ليي" ؟

قالت المسز "ليي" إن لديها الموهبة ، وعرضت على "إيللي" أن تقرأ لها
كفها إذا أعطتها عملة فضية ، وقالت "إيللي" إنها لا ترغب في معرفة
مستقبلها ، وقالت العجوز :

- ربما كان من مصلحتك أن تعرفي ما يجب أن تتجنبيه .. وما سيحدث لك ..
هيا .. لديك في جيبك قدر كبير من النقود .. إنني أعرف الأشياء التي يجب أن
تعلمها .. وضعت "إيللي" في يد العجوز قطعتين من العملة وقالت : أه يا
حسنائي .. والآن ستعرفين ما تقوله الأم العجوز "ليي" ...

خلعت "إيللي" قفازها ومدت يدها للعجوز التي فحصت اليد باهتمام وهي
تتمتم لنفسها بكلمات غير واضحة ثم تركت اليد فجأة وهي تقول :
- لو كنت مكانك لابتعدت .. اتركي هذا المكان ولا تعودي إليه ! هذا ما قلته لك
منذ قليل وهو صحيح ... قرأته في كفك مرة أخرى .. انسي أرض الغجر ..

انسي كل ما رأيته .. إنه ليس البيت وحده الذي حلت عليه اللعنة وإنما الأرض
كذلك ...

قلت للعجوز بخشونة : أنت مصرة بجنون على هذا الرأي ... ولكن الشابة
الصغيرة ليس لها شأن بالأرض هنا .. لقد جاءت لمجرد النزهة اليوم ..
لم تلق السيدة العجوز بالا لما أقوله وقالت بصرامة :

- لقد حذرتك يا حسنائي ...
تستطيعين أن تعيشي حياة سعيدة ولكن ينبغي أن تبتعدي عن الخطر ..
لاتقربي مكانا تحف به المخاطر أو حلت عليه اللعنة .. اذهبي إلى حيث يشملك
الحب وتحيط بك الرعاية ... وإلا ...

سكتت العجوز برهة ثم قالت بصوت هادئ :

... إنه مكان لطيف ...

ضحكت "إيللي" ضحكة بدت غريبة لي ثم قالت :

- نعم .. سوف تأتي .. حوالي الرابعة والنصف مساء .. هل يناسبك هذا الموعد ؟

- سوف أكون هناك في انتظارك .. أ .. أنا سعيد للغاية ...

لم أخبرها عن ذلك الشيء الذي يسعدني ... وصلنا إلى آخر منعطف في الطريق حيث ظهرت المساكن ، وقلت لها :

- إلى الملتقى في الغد .. ولا تفكري ثانية فيما قالته العجوز المخرفة .. وهي ليست الوحيدة في المكان ...

- هل تعتقد أن المكان مخيف حقا ؟

- أرض العجر ؟ كلا ...

حسن ... تلك كانت الظروف التي التقيت فيها بـ "إيللي"

ذهبت في اليوم التالي إلى مقهى الـ "بلودوج" في انتظار "إيللي" .. شربنا الشاي معا وتبادلنا الحديث .. وفي هذه الجلسة أيضا لم نتحدث كثيرا عن أنفسنا .. دار معظم الحديث حول الأشياء التي نفكر فيها والمشاعر التي نحس بها . ثم تطلعت "إيللي" إلى ساعتها وقالت إن الوقت قد حان لانصرافها كي تلحق بقطار الساعة الخامسة والنصف المتجه إلى لندن ... وقلت لها :

- كنت أعتقد أن لديك سيارة تنتظر هنا .. نظرت إلي بارتباك وقالت إن سيارة الأمس لم تكن ملكها ولم تقل سيارة من ... خيم الصمت وسادنا الارتباك وناديت الساعي ودفعت الحساب ثم قلت لـ "إيللي" بجسارة :

- هل سأراك مرة أخرى ؟

نكست رأسها وقالت إنها ستبقى في لندن لمدة أسبوعين ، وسألتها : أين؟ كيف؟ تواعدنا على اللقاء في "ريجننت بارك" بعد ثلاثة أيام .. كان الجو رائعا ...

وتناولنا بعض الطعام في مطعم في الهواء الطلق ، ثم أخذنا نتمشى في حديقة الملكة "ماري" وجلسنا بعد ذلك نتحدث عن أنفسنا .. أخبرتها أنني

تلقيت قسطا من التعليم ولكنني لم أواصل تعليمي .. ثم حدثتها عن بعض الوظائف التي شغلتها وكيف أنني لم أعمل في وظيفة واحدة بسبب طبيعتي القلقة ومحاولتي أن أجرب حظي في أكثر من عمل .. ومن المضحك حقا أنها كانت تستمع إلي بولع شديد .. وقالت : مختلف تماما .. مختلف بشكل رائع .. وسألتها عما تقصده بكلمة "مختلف" وقالت :

- مختلف عني ... وقلت محاولا إغاضتها : ألسنت فتاة غنية ؟ فتاة غنية صغيرة بانسة !

قالت : نعم ... أنا فتاة غنية صغيرة بانسة ...

ثم حدثتني عن ثروتها والرفاهية التي تعيش فيها .. والملل الذي تعانيه حيث لا يحق لها أن تختار أصدقاءها .. وكيف تتطلع في بعض الأحيان إلى أشخاص يستمتعون بحياتهم في حين أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك .. ماتت أمها وهي طفلة صغيرة وتزوج أبوها مرة ثانية .. وبعد سنوات قليلة مات الأب .. فبهتت من لهجة حديثها أنها لا تكترث كثيرا بزوجة أبيها ... وأن تلك الزوجة كانت تعيش أغلب الوقت في أمريكا ولكنها تسافر كثيرا إلى الخارج .. بدأ يربو لي أن أستمع إلى فتاة في مثل سنها تتحدث عن هذا الجو من القيود التي تفرض على حريتها .. صحيح أنها كانت تذهب إلى الحفلات والملاهي . ولكنها لم تكن تتمتع بأي حرية أو حق في الاستمتاع بالحياة ... وسألتها :

- اليس لك أي أصدقاء إذن .. وماذا بشأن المحبين ؟

قالت "إيللي" بمرارة :

- كل شيء يتم اختياره لي .. والأصدقاء في غاية السخف ...

- كذلك موجودة في سجن .

- هذه هي الحقيقة ...

- اليس لك أي أصدقاء من اختيارك ؟

- لدي الآن .. لدي "جريت" ...

- بدأتها ممن تكون "جريت" فقالت :

- ما عطني أول الأمر كوصيفة .. لا .. ليس كذلك تماما .. على أي حال كانت

قالت 'إيللي' في ارتباك : هذا هو سرنا ...
- سرنا أنت و 'جريتتا' ؟
مزت رأسها وهي تقول : يجب أن يكون لي بعض الأسرار الخاصة .
هل تعرف 'جريتتا' أنك سوف تلتقيين بي ؟
- هي تعرف إنني سأقابل واحدا .. إنها لا تكتر من الأسئلة وهي تعرف
أنني سعيدة .
مر اسبوع بعد ذلك لم أر خلاله 'إيللي' .. عادت زوجة أبيها من باريس ، كذلك
شخص كانت تسميه بـ ' العم فرانك ' . وقهمت منها عرضا أنها تحتفل بعيد
ميلادها ، وأنهم سيقومون لها حفلا كبيرا في لندن .. قالت إنها لن تستطيع
الخروج في الأسبوع التالي . ولكن الأمر سوف يختلف بعد ذلك ...
سألتها : كيف ؟ فقالت : لأنني حينئذ سوف أكون قادرة على أن أفعل ما
يريدني ..
بمساعدة 'جريتتا' كالعادة ؟
كانت طريقة كلامي عن 'جريتتا' تثير ضحك 'إيللي' ، وكانت تقول لي أحيانا :
- أنت غبي لغيرتك منها ... يجب أن تلتقي بها يوما .. وسوف تحبها
وقلت لها بعناد : لا أحب الفتيات نوات الميل إلى السيطرة ...
- لماذا تعتقد أنها مبالغة للسيطرة ؟
- من طريقة حديثك عنها .. إنها مشغولة على النوم بتدبير شيء ...
- 'جريتتا' على درجة عالية من الكفاءة .. إنها تجيد تدبير الأمور .. لهذا
اعتمد عليها زوجة أبي إلي حد بعيد ...
- ماذا عن عمها 'فرانك' وقالت :
- في الواقع أنا لا أعرفه جيدا .. إنه زوج عمتي ... لم يكن سلوكه طيبا
وأعترض العداوة مرة أو مرتين .
- هل كان شريرا ؟ غير مقبول اجتماعيا ؟
- أعرف أنه تعرض لبعض السقطات المالية واعتماد الناس والمحامون أن
يقاوموه من خلاله .. يدفع بعض المال ...

لدي فتاة فرنسية عاشت معنا لمدة عام .. لتعلمني الفرنسية .. ثم جاءت 'جريتتا'
من ألمانيا لتعلمني الألمانية .. ولكن 'جريتتا' كانت مختلفة .. اختلف كل شيء
بعد وصول 'جريتتا' ...
سألتها : هل أنت شديدة الحب لها ؟
- هي تساعدني .. إنها تقف في صفي ... ترتب لي كل شيء بحيث
أستطيع أن أفعل ما أريده وأذهب إلى شتى الأماكن إنها تكذب لتغطيني ..
لم يكن باستطاعتي أن أذهب إلى أرض الفجر لولا مساعدة 'جريتتا' .. إنها
تصاحبني وترعاني في لندن عندما تكون زوجة أبي في باريس ... أكتب
خطابين أو ثلاثة وإذا سافرت إلى أي مكان ترسل 'جريتتا' الخطابات كل ثلاثة
أو أربعة أيام وعليها طابع بريد لندن ...
- لماذا كنت ترغبين على أي حال في الذهاب إلى أرض الفجر ؟
- لم تجبني في الحال ... وقالت بعد تردد :
- ربيت الأمر مع 'جريتتا' .. إنها رائعة ... تفكر في الأمور وتقتراح الآراء ...
- سألتها : ما شكل 'جريتتا' هذه ؟
- أوه .. إنها جميلة ... طويلة شقراء ... وتستطيع أن تفعل أي شيء ...
قلت لها : لا أظن أنني سوف أميل إليها ..
ضحكت 'إيللي' وقالت : أوه ... أنا واثقة أنك سوف تحبها ... إنها شديدة
الذكاء أيضا .
- لا أحب الفتيات الذكيات ... كما لا أحب الفتيات طويلات الشقراوات ..
أحب الفتيات الصغيرات نوات الشعر الشبيه بأوراق الخريف
- أعتقد أنك تغار من 'جريتتا' .
- ربما ... هل أنت شديدة الحب لها ؟
- نعم ... أحبها حبا شديدا .. لقد جعلتني أرى الحياة مختلفة تماما ..
- هل كانت هي التي اقترحت عليك المجيء إلى هنا ؟ لماذا ؟
- لا يوجد الشيء الكثير الذي تستطيعين مشاهدته أو عمله في هذا الجزء من
العالم ...

كنت رويت لها الكثير عن "سانتونس" والبيوت التي يشيدها .. حاولت أن أصف لها شكل تلك البيوت والطريقة التي يفكر بها "سانتونس" ... ولكنني لا أعتقد أنني أحسنت الوصف لأنني لست بارعا في ذلك .. لاشك أن "إيللي" كان لديها تصورها الخاص للبيت . بيتنا ... لم نقل "بيتنا" ولكننا كنا ندرك أننا نعني ذلك هكذا . لم أستطع رؤية "إيللي" لمدة أسبوع ... جمعت النقود التي ادخرتها ولم تكن بالشيء الكثير واشترت لها خاتما بقص أخضر وقدمته لها كهدية في مناسبة عيد ميلادها ، وأحبته كثيرا وكانت سعيدة به للغاية ، قالت إنه جميل ... لم تكن تلبس كثيرا من الجواهر ولكن الجواهر كانت حقيقية ولمصمصها من الأحجار الكريمة ولكنها أحببت الخاتم الذي قدمته لها وقالت :

- سوف يكون أحب الهدايا التي قدمت لي ...

تلقيت رسالة عاجلة منها تخبرني أنها سوف تسافر بعد حفل عيد ميلادها مباشرة إلى جنوب فرنسا ، وقالت في رسالتها :

- ولكن لا تقلق .. سوف نعود بعد أسبوعين أو ثلاثة قبل سفرتنا بعد ذلك إلى أمريكا .. ونستطيع أن نتقابل بعد ذلك ...

لدي موضوع خاص أحب أن أتحدث عنه معك .

تعرفت بالشقيق والقلق لأنني لن أرى "إيللي" بعد سفرها إلى فرنسا ... تلقيت ذلك الخبرا عن بيت أرض العجر .. سمعت أنه بيع ولكنني لم أعرف شيئا عن المشتري ... قبل لي إن مكتبا قانونيا تولى الشراء لحساب شخص لم يصرحوا باسمه ، عن شخصيته ... ذهبت إلى المكتب وعرفت من أحد الكتبة أن المشتري شخصية على درجة كبيرة من الثراء .. انتابتي حالة من القلق الشديد وتوقفت عن التفكير في الموضوع .. وذهبت لأرى أمي ... ولم أكن رأيتها منذ وقت طويل ...

- هكذا .. إذن فهو الجانب المظلم في الأسرة .. ومع هذا أعتقد أنني أستطيع التعامل معه بشكل أسهل من تعاملي مع "جريت" .. لم تقترح علي "إيللي" قط أن ألتقي بأي واحد من أفراد أسرتها .. وكنت أسأل نفسي في بعض الأحيان عما إذا كان ينبغي لي أن أفاتها في ذلك .. تجرأت مرة وقلت لها :

- استمعي إلي يا "إيللي" ... هل ترين أنه ينبغي لي أن ألتقي بأفراد أسرتك؟

أجابني على الفور قائلة : كلا .. لا أحب أن تلتقي بهم .

- أعرف أنني لست .

- لم أقصد هذا المعنى .. لم أقصده بالمرّة ! أعني أنهم سوف يثيرون عاصفة ...

وأنا لا أتحمّل مواجهة العواصف

- أشعر أحيانا أن هذا الأمر يجري في الظلام .. ألا تعتقد أن ذلك يلقي علي ظلالا قاتمة ؟

قالت "إيللي" بحزم :

- لقد كبرت إلى الحد الذي يسمح لي باختيار أصدقائي ... لقد اقتربت من بلوغ سن الرشد ... عندما أبلغ الواحدة والعشرين من عمري لن يمنعني أحد من عمل ما أحب .. أما الآن فكما أقول لك يستطيع أهلي أن يرسلوني إلى مكان بعيد بحيث لا أستطيع مقابلتك .. دعنا نستمر كما نحن الآن ..

- لا بأس إذا كان هذا يناسبك .. كل ما في الأمر إنني لم أكن أريد أن أبقى هكذا في الظل .

- هذا يتيح لي أن يكون لي صديق أتحدث معه ... شخص أستطيع أن ...

ابتسمت ثم قالت : إنسان أستطيع أن أصدقه القول ... إنك لا تدري كم هو رائع هذا .

هكذا سارت الأمور ... وقالت "إيللي" في إحدى المرات :

- دعنا نتخيل أننا اشترينا أرض العجر وأننا نبني بيتا هناك ...

الفصل الثالث

- قيادة السيارات الفاخرة والسفر إلى القارة ! أهذه هي فكرتك عن رؤية الدنيا؟

- بالتأكيد.

- لن يحقق لك ذلك نجاحا كبيرا خاصة عندما ترسل برقية تقول : فيها إنك مريض وتترك زبائنك في مدينة ملعونة ..

- كيف عرفت ذلك ؟

- اتصلت شركتك بي وسألتني عما إذا كنت أعرف عنوانك ... سألتها عن سبب اتصالهم . وقالت إنهم يرغبون في إعادة تعييني ... سألتني لماذا لم اتصل بهم بعد عودتي إلى إنجلترا .

وقالت لها : لأن لدي سمكة أخرى في المقلاة !

رفعت حاجبيها وقالت :

- ألا يزال في رأسك مزيد من الأفكار الوحشية ؟

ما الوظائف التي توليتها في الفترة الأخيرة ...

- عامل في محطة بنزين ... ميكانيكي في جراج ... كاتب مؤقت .. غاسل سيارات في مطعم ملهى ليلي ..

قالت أمي بحسرة : أنت تنحدر إلى أسفل .

ألا .. كل هذا جزء من خطة ... خطتي !

سألت عما إذا كنت أريد شايا أو قهوة ؟ واخترت القهوة .

وبدأنا نحن جالسان والأقداح أمامنا قالت فجأة :

أراك مغتلفا

سألتها : كيف ؟ قالت إنها لا تدري ولكنها تراني مغتلفا .

قالت أمي عما حدث . وقلت إن شيئا لم يحدث . وقالت : أنت متوتر الأعصاب

أنا مغتلفا .. سوف أسرق بنكا ..

أنا مغتلفا في حالة تسمح لها بالمزاح . واكتفت بقولها :

أنا مطمئنة إلى أنك لن تفعل شيئا كهذا ...

وأم ١٧ سنة أسهل وسيلة اليوم لتحقيق الثراء العاجل .

كانت أمي تقيم في نفس الشارع الذي تقيم فيه منذ عشرين سنة .. وهو شارع يضم مجموعة من البيوت القديمة الخالية من أي جمال .. ضغطت على زر جرس الباب وفتحت أمي الباب ووقفت تنتظر إلي .. كانت تبدو كالعادة طويلة نحيلة شعرها الرمادي مفروق من الوسط .. وفمها كمصيدة للفئران ... وعيناها حافتان بالشك ... كانت نظراتها صارمة ... ولكنني كنت أعلم أن في جوانحها بعض الرقة التي لا تظهرها قط .. لم تتوقف رغبتها في أن يتغير مسلكي في الحياة ... ولكن رغبتها لم تكن لتتحقق قط ... كان بيننا حاجز أبدي ... قالت أخيرا :

- أوه ... ما قد عدت ..

تراجعت قليلا لكي تفسح لي مكانا للدخول ، وبخلت إلى غرفة الجلوس واتجهت نحو المطبخ .. تبعتني وهي تقول :

- مضى زمن طويل ... ماذا كنت تفعل ؟

هزئت كتفي قائلا : هذا وذاك ...

- أه .. كالعادة ... إيه ؟

- نعم كالعادة ...

- كم عدد الوظائف التي تنقلت بينها منذ رأيتك آخر مرة ؟

فكرت قليلا ثم قلت : خمسة .

- كم أتمنى أن تكبر ...

- بلغت سن الرشد منذ فترة ... وقد اخترت طريقي في الحياة .

كيف كانت أحوالك ؟

قالت : كالعادة ... ليس لدي وقت أضيعه في المرض .. سكنت برهة ثم قالت

ما الذي دفعك إلى المجيء ؟

- هل ينبغي أن أجيء لسبب خاص ؟

- هذا ما تفعله عادة ...

- لا أدري لماذا تعارضين بشدة أسلوبى في الحياة ...

- كلا ... أريد أن أشتري حلة فاخرة ألبسها في حفل زواجنا ...
- هل ستتزوجها ؟
- إذا وافقت على الزواج
هزت رأسها وقالت : لو أنك صارحتني بالحقيقة .. إنه الشيء الذي كنت
أحشاه دائما .. أن تسيء اختيار فتاتك
صحت بغضب قائلا : أسيء الاختيار ؟ ! يا للجحيم !
غادرت البيت غاضبا وصفقت الباب ورائي بعنف
عندما عدت إلى البيت وجدت برفية في انتظاري ... طلبت مني 'إيللي' أن
أقارباها في المكان المعتاد غدا .. في الساعة الرابعة والنصف ...
كانت 'إيللي' مختلفة تماما عما رأيتهما آخر مرة ... كانت شديدة الاعتداد
بالمسها .. هل يمكن أن يحدث كل هذا الفارق لأنها كبرت عاما ؟
أشهرتني أنها ذهبت لتري ذلك البيت الذي بناه صديقي المهندس في
الريفيرا
وأنها ذهبت مع زوجة أبيها وعمها لتناول الشاي مع 'ديمتري كونستانتين'
صاحب البيت ، وسألتهما عما إذا كانت زوجة أبيها تعرف الرجل ، وقالت إن
'جريتا' هي التي دبرت اللقاء ورتبت كل شيء ، وقلت باعتراض : 'جريتتا' مرة
أخرى ؟
وسألتهما عما إذا كانت 'جريتتا' رافقتهم في الذهاب إلى البيت ، وقالت إن
زوجة أبيها لا تعاملها على أنها فرد من الأسرة .. ثم بدأت تتحدث عن البيت
الذي طالما حلمنا به .. البيت الذي يستطيع صديقي 'سانتونكس' أن يبنيه لنا
بعد هدم البيت القديم في أرض العجور ... كانت تتحدث عني وعنهما لأول مرة
بتدريفة الجمع ... وقالت إن ذلك سوف يتم بالتأكيد بعد زواجنا لقد بلغت
بين الرشد وأصبح من حقها أن تفعل ما تشاء
قلت لها بمرارة : إن الحلم لن يتحقق لأن البيت قد بيع ، وقالت ضاحكة : إنها
أخبرت ذلك ، لأنها هي التي اشترت البيت .. قالت : إننا نستطيع أن نتزوج
شال أندروج ، وإننا لن نخطر أحدا بزواجنا وليضربوا بعد ذلك رؤوسهم في
الهدران ... قلت لها : إنني ذهبت لزيارة أمي ، وسألتهما عما إذا كنت أحب

- هذا يحتاج إلى عمل كثير وتخطيط ... وهو جهد شاق لا تحب أن تبذله كما
أنه ليس مأمون العواقب .
- هل تعتقدين أنك تعرفين عني كل شيء ؟
- كلا .. لا أستطيع أن أدعي ذلك .. إنني لا أكاد أعرف عنك شيئا في
الواقع .. لأننا مختلفان اختلاف الطباشير عن الجبن ... ولكنني أعرف عندما
تفكر في الإقدام على شيء .. أنت تفكر في شيء الآن .. ما هو يا 'ميكي' ؟
أهي فتاة ؟
- ولماذا تظنين أنها فتاة ؟
كنت أعرف دائما أن ذلك سوف يحدث ذات يوم ...
- ماذا تعنين بـ ' ذات يوم ' ؟ لقد عرفت من قبل فتيات كثيرات .
- ليس بالمعنى الذي أقصده .. لم تكن جادا في علاقتك بالفتيات حتى
اليوم ...
- وهل تعتقدين أنني جاد الآن ؟
- أهي فتاة يا 'ميكي' - أدرت وجهي حتى أتجنب نظراتها وقلت : إلى حد
ما ...
- سألتني عن طراز الفتاة ؟ وقلت إنها الطراز الذي يناسبني .
وسألتهما عما إذا كنت سأحضرها لتراها ، وأجبت بالنفي ، وقلت إنني لأريد
أن أجرح مشاعرهما .. وسألتهما عما إذا كان ذلك خوفا من رفضها ، وقلت لها :
- ما كنت لأهتم لو أنك رفضت ...
- ربما ... ورغم هذا فسوف تهتز لرفضني ... سوف يهتز شيء بداخلك ..
لأنني خمنت أشياء وربما كان تخميني صحيحا وأنت تدرك ذلك ... أنا الشخص
الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يزعزع ثقتك في نفسك ... أهي فتاة
شريفة تلك التي امتلكت فؤادك ؟
ضحكت وقلت لها : شريفة ؟ أه لو أنك رأيتهما .. إنك تدفعينني للضحك ...
- ما الذي تريد مني ؟ أنت تريد شيئا .. كان ذلك دأبك دائما ...
قلت لها : إنني أريد بعض النقود ، وقالت :
- لن أعطيك شيئا .. هل تريد أن تنفق النقود عليها ؟

أمي ، وقلت إنني لا أعرف .. وإن أمي تعرف عني أسوأ ما في ، وقالت ضاحكة :

- لا بد من وجود شخص يعرف هذا الجانب ، سألتها عما إذا كانت مرتاحة لزوجها مني ، وكيف يمكن التوفيق بين فقري وجهلي ، وبين ثرائها ومركزها الاجتماعي قالت :

- هل تريد أن تعرف رأيي ؟ لن نعبأ بما يقوله الناس .. سوف يبني لنا صديقك البيت الذي نريده

كان بعض الناس يجلسون بالقرب مني ، ولكنني لم أكن أرى شيئا في الوجود سوانا ، وقالت ' إيللي ' فجأة : إنها تريد أن تصارحني بشيء ، وقلت لها لاداعي لذلك ... ولكنها قالت بإصرار :

- ولكنني يجب أن أصارحك لأن الأمر يتعلق بأرض الغجر ... لقد قلت إنك اشتريته ولكن كيف ؟

- وكنت بعض المحامين لشرائه ... إنه استثمار جيد لأن قيمة الأرض سوف ترتفع ...

تعجبت لأن ' إيللي ' الفتاة الرقيقة المترددة تتحدث بثقة عن البيع والشراء والأعمال ... قالت : إنها لم تكلف محامي العائلة بإتمام هذه الصفقة وإن كل شيء تم في سرية تامة ؟ وإنها وقعت العقد ، وقالت إن لديها شيئا آخر تحب أن تقول ، وقلت لها إنني لا أريد أن أسمع شيئا آخر ، وقالت :

- لقد قلته لك بالفعل أثناء الحديث ولكن يبدو أنك لم تظن له .. دعوتني بالفتاة الغنية البائسة .. وأنا غنية بالفعل .. على درجة واسعة من الثراء ..

معظم الثروة من البترول .. ورثتها عن جدي وكان أبي الوريث الوحيد لأن شقيقه الآخرين قتلوا .. أحدهما في كوريا والآخر في حادث سيارة ... ترك أبي لزوجته قبل وفاته حصة معقولة لهذا لم تحصل على المزيد بعد موته ... هكذا أصبحت الثروة الضخمة ملكا خالصا لي .. وأنا في الواقع أعتبر واحدة من أغنى السيدات في أمريكا .

قلت لها بدهشة : يا إلهي .. لم أكن أعرف ... أنت على حق ... لم أكن

أتصور أن الأمر كذلك

- لم أكن أريدك أن تعرف .. لم أشأ أن أخبرك .. لهذا كنت خائفة عندما

أخبرتك أن اسمي ' فينيلا جودمان ' ... الاسم في الحقيقة ' جوتمان ' ...

لهذا كنت مخاطة بحراسة مخبرين خصوصيين كالسجينة ... يمنعون الشبان من الاقتراب مني .. ولكنني أصبحت حرة الآن .. وإذا لم يكن لديك مانع .

- ليس لدي مانع بالتأكيد .. سوف نستمتع على أوسع نطاق .. ولا أظنك ستكونين فتاة واسعة الثراء بالنسبة لي

اشمكتنا في سعادة وقالت إن بساطتي هي التي تجعلها معجبة بي .. ارتعدت فهاة وسألتها عما إذا كانت تشعر بالبرد وقالت :

- كلا ... لقد تذكرت تلك الفجرية ... لا تعيرها أهمية فهي امرأة مجنونة .

سألتني عما إذا كنت أومن حقا بأن لعنة أطلقت على أرض الغجر ، وقلت لها إن هذا شأن الغجر .. يطلقون لعناتهم على أي شيء . وقلت لها إننا نستطيع شراء بيت في مكان آخر إذا لم تكوني تريدين أرض الغجر ، ولكنها قالت

وإصرار :

- كلا .. لا أريد مكانا آخر ... لأنه المكان الذي رأيتك فيه لأول مرة ... لن أنسى ذلك ما حييت ..

- أنا أيضا لن أنسى ذلك قط ... سوف يكون ذلك هو المكان الذي يقام فيه بيتنا ... وسوف يبني صديقك

بيتنا ونكس ..

- أتعني أن يكون على قيد الحياة .. تركته آخر مرة في أشد حالات المرض . إنه حي ... لقد ذهبت لأراه .

- هل التقيت به حقا ؟

- نعم ... عندما كنت في جنوب فرنسا ..

لأنه يقيم في مصحة هناك ..

أنت فتاة مدعشة حقا ... الأشياء التي تفكرين فيها والتي تعطينها راحة .

الفصل الرابع

هكذا سارت الأمور ... تزوجنا أنا و "إيللي" قررنا الزواج وتزوجنا ... كان ذلك جزءا من الأمر ككل . وليس خاتمة لقصة رومانسية .. تزوجنا وأحس كل منا بالسعادة ، وانقضى وقت ليس بالقصير قبل أن يتصل بها أحد وتبدأ المقامب التي أعدنا أنفسنا لمواجهة .. تم الأمر بهدوء تام ... مع رغبة "إيللي" في الحرية نبرت الأمور بذكاء شديد ونجحت "جريت" في اتخاذ الخطوات المناسبة للتغطية على ما نديره وظلت يقظة وراعا .. وسرعان ما أدركت أنه لا يوجد في الواقع أحد يهتم بما تفعله "إيللي" ، كانت لها زوجة أب مشغولة بحياتها الاجتماعية الخاصة وبمغامراتها الغرامية .. وإذا لم تكن "إيللي" رغبة في مرافقتها إلى أي مكان في العالم فلم تكن هناك حاجة إلى مطالبتها بذلك ، فقد كان لـ "إيللي" خدمها ووصيفاتها ولها أن تذهب إلى أي مكان تشاءه .. إذا كانت تريد السفر إلى لندن بمناسبة بلوغها سن الرشد فما المانع ؟

إذا أرادت فيلا في "الريفيرا" أو في "كوستا برافا" أو يختا أو أي شيء آخر فإن ملايينها كغاية بتحقيق رغبتها في الحال . كانت "جريت" على درجة عالية من الكفاءة في ترتيب الأمور ، تعامل زوجة الأب بطريقة ممتازة ، وكذلك الغلة من أقارب "إيللي" .. وكان يحيط بـ "إيللي" مجموعة كبيرة من المحامين ورجال الأعمال الذين يتولون المسائل القانونية والأمور المتعلقة بثروتها الضخمة ، وكنت أراقب الموقف من بعيد وأنا لا أعرف شيئا من مثل هذه الأمور .. لقد نشأت بين هؤلاء الناس ولا شك أنها اعتادت التعامل معهم .. المهم أنني وجدت حياتي الجديدة ممتعة ومثيرة للغاية ..

علاوة على ذلك ، لم أكن أعرف كيف يعيش الفقراء .. كما أن الفقراء يجهلون أساليب حياة الأغنياء .. وقد سألت "إيللي" ذات مرة عما إذا كان أقاربها سوف يشيرون المقامب ، فقالت إنهم سيتصرفون بشناعة وعلي أن أتجاهلهم ، وقلت لها : ليس ذلك ما أعنيه .. هل سوف يزعمونك كثيرا ؟

الواقع ذلك ولكنني لن أعيرهم اهتماما .. لأنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا

- هل أفزعك ؟

- نعم .. أفزعني بشدة ..

- هل تحدثت معه عنا ؟

- نعم ... رويت له كل شيء عن أرض الغجر والبيت الذي تفكر في بنائه ... وقال : إننا نخاطر بالاعتماد عليه لشدة مرضه .. وأضاف أنه سيعاين الموقع ويرسم خرائطه ويرجو أن يمتد أجله حتي يبني لنا البيت ويرانا نعيش فيه . ثم سألتني عما إذا كنت أعرف جيدا عواقب زواجي منك . وقلت : له إنني أعرف بالتأكيد ، وعندئذ أبدى دهشته ... وسألته عما قاله بعد ذلك ، فقالت :

- قال .. أنت يا مس "جوتمان" سوف تعرفين جيدا خطواتك لأنك اخترت طريقك .. ولكن المشكلة في "مايك" .. إنه لم يبلغ درجة النضج التي تسمح له باختيار طريقه . وقلت له إنك ستكون أمنا معي ...

كانت تتكلم بثقة ، وشعرت بالغضب لما قاله "سانتوكس" ... كان يشبه أمي ... كانت تعتقد دائما أنها تعرف عني أكثر مما أعرفه عن نفسي .. وقلت بعصبية :

- إنني أعرف طريقي جيدا ... إنني أسلك الطريق التي سوف نسلكها معا . قالت "إيللي" إن عملية هدم البناء قد بدأت بالفعل ، ولا بد من الإسراع ثم سألتني :

- ما رأيك في أن يتم زواجنا يوم الثلاثاء القادم ؟

- إنه يوم لطيف من أيام الأسبوع .

- لن يكون هناك أحد سوانا ؟

- وقالت "إيللي" : فيما عدا "جريت" .

- صرخت قائلاً بانفعال :

فلتذهب "جريت" إلى الجحيم ! لن تحضر زفافنا ... لن يكون هناك سوانا .. ونستطيع أن نختار الشهود من الطريق .. عندما أعود بالذاكرة إلى ذلك الماضي . أرى ذلك اليوم أسعد أيام حياتي

نسيت نصف أسماء تلك الأماكن .. ركبنا الطائرات واستأجرنا يختا .. وأثناء رحلتنا فهمت من "إيللي" أن "جريت" بقيت في الوطن ، تؤدي مهمتها في النقطية علينا ، تسافر إلى شتى المدن وتبعث من كل منها بكارت من الكروت البريدية التي تركتها لها "إيللي" ، وقالت "إيللي" ضاحكة :

- عندما يكتشفون الحقيقة سوف يتقضون علينا كالنسر الجارحة ... ولكن حتى تحين تلك الساعة يجب أن نستمتع بكل لحظة ...

- وماذا بشأن "جريت" ؟ ألن يغضبوا منها ؟

وقالت "إيللي" : سوف يغضبون منها ولا شك .. ولكن "جريت" لن تكثر وهي امرأة صلبة .

ألن يحول ذلك دون حصولها على وظيفة أخرى ؟

- ولماذا تحصل على وظيفة أخرى ؟ سوف تأتي لتعيش معنا قلت لها بحزم : كلا سألتني بقلق عما أعنيه وأخبرتها أنني لا أريد أحدا معنا .

وقالت : لن تقف "جريت" حائلا بيننا .. وسوف تكون مفيدة للغاية .. في الحقيقة لا أعرف كيف أتصرف بدونها ... إنها ترتب لي كل شيء ...

عشت وأنا أقول لها : لا أحب ذلك فضلا عن أننا نريد البيت الذي حلمنا به يا "إيللي" نريده لنا وحدنا ...

- وسوف يكون شاقا على "جريت" ألا تجد مكانا تعيش فيه ... ولا تنس أنها ولدت معي أربع سنوات ... وهي التي ساعدتني في الزواج .

- لا أريد أن أراها بيننا طول الوقت !

- ولكنها ليست كذلك يا "مايك" .. إنك لم ترها حتى الآن .

- ولكنني أريد أن نكون وحدنا يا "إيللي" ...

تحدثت "إيللي" خاطري برقة وقررنا الكف عن الحديث في هذا الموضوع مؤقتا والتفينا أثناء رحلتنا بـ "سانتوكس" ...

فإن ذلك في اليونان .. كان يقضي فترة نقاهة في كوخ صغير لأحد الصيادين بالقرب من البحر ... هالتي حالته ...

كان يبدو أسوأ بكثير مما كان عليه عندما رأيته آخر مرة منذ عام ..

استأجرتنا بحارة وقال : هكذا فعلتما ما تريدان ..

وقالت "إيللي" : نعم .. والآن سوف تبني لنا البيت ؟

شيئا ...

- ولكنهم سوف يحاولون ؟

- من المحتمل أن يحاولوا شراءك لكي تذهب .

- شرائي ؟ !

- لا تنزعج هكذا .. ربما لم أحسن التعبير ... أنت تعرف أنهم اشتروا "ميمي" ثومبسون "أولا .

- "ميمي" ثومبسون ؟ أليست تلك التي يلقبونها بوريثة أبار البترول ؟

- نعم .. لقد هربت وتزوجت أحد حراس الشواطئ ..

قلت لها باستياء : لا تنسي يا "إيللي" أنني عملت ذات يوم حارسا لياليا ..

- أحقا ؟ يا له من أمر مضحك ... هل مكثت في العمل طويلا ؟

- كلا بالتأكيد ... اشتغلت موسما واحدا .. ولكن ما الذي حدث لـ "ميمي" ثومبسون ؟

- أعتقد أنهم عرضوا ... مائتي ألف دولار ...

قلت لها معازحا : أنت تشيرين شهيتي يا "إيللي" ... أنا لم أقتن زوجة . وإنما اقتنيت شيئا أستطيع أن أقايض عليه بمبلغ ضخم من المال الشيء

المضحك أنني صدمت بالفعل ... شعرت بالاستياء نحو ذلك المجتمع من الأثرياء . ورغم هذا فقد كنت أعرف أن "إيللي" في قرارة نفسها مخلوقة رقيقة

عذبة ، وليس معنى هذا أنها تجهل الأشياء .. لم تكن تعرف شيئا عن عالمي .. عالم البحث عن عمل ، وعصابات سباق الخيل والمخدرات .. لم تكن تعرف

معنى أن يولد الإنسان في وسط محترم . ولكنه مطالب بالسعي دائما للحصول على المال أن تكون للإنسان أم تحفر الصخور بيديها لكي توفر لابنها

الحياة الكريمة .. كانت تشعر بالمتعة ، وهي تستمع إلى قصة حياتي . كما كنت أستمتع بالاستماع إلى قصتها .. كان كل منا يستكشف عالما غريبا عنه ..

تزوجنا في مكتب السجلات في "بليموت" ... لم يعرف الصحفيون أن وريثة "جوتمان" في إنجلترا ... خرجنا بعد عقد الزواج أحرارا .. مستر ومسترز

"مايكل روجرز" ! قضينا أسبوعا في فندق ساحلي ثم سافرنا للخارج .. أمضينا ثلاثة أسابيع ممتعة ونحن نسافر إلى حيث نشاء غير عابئين

بالمصاريف .. ذهبنا إلى اليونان وفلورنسا وفينيسيا والريفيرا الفرنسية ..

- كلا ... ليس الأمر كذلك توجد وسائل أخرى وقد تكون بالغة الغرابة في بعض الأحيان .

قلت له : إنني لا أفهك ...

- كلا ... لن تفهمني يا "مايك" ولا أعتقد أن "إيللي" تستطيع هي الأخرى أن تفهم .. يوجد شيئان يسيران جنباً إلى جنب ... الضعف والقوة .. ضعف اكتساب الحيوية وقوة يأس الطاقة ...

ومن ثم لا أهمية لما تفعله بعد ذلك ، لأنك ستموت على أي حال .. لهذا لا يهم ماذا تفعل الآن ! لا شيء يعوقك .. لا شيء يدفعك إلى الوراء ... أستطيع أن أمشي في شوارع أثينا وأطلق النار على رجل أو امرأة لا يعجبني وجهها .. فكر في ذلك .. قلت له إن الشرطة يعتقلونك ، قال :

- بالتأكيد ولكن ماذا باستطاعتهم أن يفعلوا ؟ يزهقون روحي ؟

هناك قوة أقوى من القانون الطبيعي سوف تقوم بهذه المهمة في أقصر وقت هكذا أصبح ملكاً خلال الفترة المتبقية لي أفعل فيها ما أشاء ...

عندما تركناه بعد ذلك ونحن في طريق العودة إلى أثينا قالت لي "إيللي" :-

إنه شخص غريب الأطوار .. لهذا فأنا أرتاع منه ...

- نراهم من "رودلف سانتونكس" ؟ لماذا ؟

لأنه ليس كالأشخاص الآخرين ... إحساسه بأنه سيموت قريباً يزيد من إعاليه وكبريائه .. سكنت "إيللي" برهة ثم أردفت تقول :

أخبرني أنه بنى لنا بيتنا وذهبنا لئرى البيت ووجدناه يرحب بنا على الباب ثم .

أم ماذا يا "إيللي" ؟

أم أطلق الباب وراعنا وضحي بنا .. ذهبنا !

أنت تخبريني يا "إيللي" الأشياء التي تفكرين فيها ..

نظرتنا معا يا "مايك" أننا لا نعيش في عالم الواقع نحلم بأشياء خيالية لا يمكن أن تحدث ...

لا تفكري في التضحية مقرونة بأرض العجر ...

والقدنا التي أطلقت على المكان ؟

فهمنا أننا بالفعال : انسي تلك اللعنة .. لا وجود لشيء كهذا ... كان ذلك في اليونان

قال إنه انتهى من رسم التخطيط واستجاب لأوامر "إيللي" وقالت "إيللي" :

- لم تكن أوامر ... كانت مجرد رجاء

أخبرته أننا اشترينا الموقع ، وقال إن "إيللي" أرسلت له برقية تخبره بذلك ويعتد له بعشرات الصور الفوتوغرافية للمكان ، وقالت "إيللي" :

- لا بد أن ترى الموقع أولاً ... ربما لا يعجبك .

وقال : إنني أحبه ...

- لا تستطيع أن تقول ذلك حتى تراه ..

وقال "سانتونكس" ضاحكاً : ولكنني رأيت يا صغيرتي ، ركبت الطائرة منذ خمسة أيام والتقيت بواحد من محاميك .. وقد بدأت عمليات تمهيد الأرض وهدم البيت القديم وعندما تعودين إلى انجلترا سوف تجديني في انتظارك .. عرض عليها الرسوم التي أعدتها ، وسألتني عما إذا كانت تروقني ، وقلت لها :

- نعم ... هذا ما كنت أحلم به .. إنه يتفق تماماً مع أحلامي ...

قال لي "سانتونكس" : اعتدت يا "مايك" أن تحدثني كثيراً عنه .. كنت رجلاً تعشق بيتاً لا ينتظر أن تمتلكه .. بيتاً لن تراه ولن يوجد في الحقيقة ..

وقالت "إيللي" بحماس : ولكنه سوف يقام .. سوف يقام .. أليس كذلك؟ قال "سانتونكس" : إذا شاء الله .. الأمر لا يتوقف على رغبتني .. سألكه بارتياب :

ألا تشعر ببعض التحسن ؟

- لن تتحسن حالتي قط ... استبدي تلك الفكرة من رأسك تماماً

قلت له إن الأطباء كثيراً ما يخبرون المرضى أنهم سيموتون بعد أشهر ولكن الذي يحدث أن المريض يعيش خمسين عاماً أخرى ، وقال "سانتونكس" :

- يعجبني تفاعل يا "مايك" ... ولكن مرضي ليس من هذا النوع .. إنهم يغيرون دمي في المستشفى بين الصين والحين ليتمت أجلي قليلاً .. وفي كل مرة أزداد ضعفاً ووهناً .

قالت "إيللي" : أنت شجاع جداً ..

وقال "سانتونكس" : أوه كلا ... لست شجاعاً عندما يكون الأمر مؤكداً لا يصبح أمام الإنسان سوى أن يبحث عن السلوى ...

- في بناء البيوت ؟

الفصل الخامس

لا ... كل ما أريده أن أكون معك وأن نرى معا البيت الذي نحلّم به بيني طوية طوية بمجرد أن يصل " سانتونكس " إلى هناك .
- على أية حال لن يستغرق الاجتماع مع الأسرة وقتا طويلا ... إما أن يطارروا إلينا أو نطير إليهم ...
- ظننت أنك قلت إن زوجة أبيك في " سالزبورج " ؟
- أوه .. قلت ما خطر على بالي لأنه سيبدو غريبا ألا أعرف مكانها ... حسن .. سوف نذهب إلى الوطن ونلتقي بهم جميعا .. أرجو ألا يزعجك ذلك كثيرا يا " مايك " .
- تعنين أسرتك ؟
- نعم ... هل يزعجك أن يكونوا سخفاء معك ؟
- أعتقد أن هذا هو الثمن الذي ينبغي أن أدفعه لزواجي منك .. وسوف أحمل ذلك .. وقالت " إيللي " مفكرة : وهناك أمك وقلت باستياء : هل تحاولين أن تصمعي بين زوجة أبيك بئرائها وأمي التي تحيا في الشارع الخلفي ؟ ما الذي تتصورين أن تقوله كل منهما للأخرى ؟
- أو أن " كورا " كانت أسي فريما وجدنا الكثير من الحديث المشترك ... أرجو ألا تكون متأثرا يا " مايك " بالفوارق الطبقية ... وقلت لها بمرارة : إنني لا أعرف الملابس المناسبة لكي ارتديها ولا أعرف الأسلوب المناسب للحديث .. ولا أعرف شيئا عن الفن والموسيقى ..
طابت مذاها في النهاية ألا تحاول الجمع بين أسي وأسرتها ، وقالت إنها تود بمغادرة أسي عند رجوعنا إلى إنجلترا ، وقلت بإصرار : كلا ...
انظرت إلي بارتياح ، وسألتني عما إذا لم أكن قد أخبرتها بزواجنا ، وقلت : لم أخبرها بعد .. سألتني : لماذا ؟ . لم أجب ، وقالت :
ألم يكن أقل شيء أن تخبرها وتأخذني إليها بمجرد عودتنا إلى إنجلترا ؟
الشيء الآخر ، كلا .. كانت لهجتي أخف حدة في هذه المرة ، وسألتني ببطء :
ألا تريد علي أن أقابلها ؟
كان من الواضح أنني لا أريد لهذا اللقاء أن يتم . وأخبرتها أن هذا اللقاء يؤدي إلى المشاكل ، لأنني تزوجت دون استشارتها ، وهزت " إيللي " رأسها قائلة :

أعتقد أن ما حدث في اليوم التالي كان أثناء وجودنا في أثينا عندما التقت " إيللي " فجأة ببعض المعارف في " الأكروبول " .. اندفعت سيدة في حوالي الخامسة والثلاثين من عمرها نحو " إيللي " قائلة :
- " إيللي جوتمان " ؟ لم أكن أتصور أن أقابلك هنا .. كيف حال " كورا " ؟ هل هي هنا أيضا ؟
- لا .. أعتقد أنها في " سالزبورج " .
التفتت السيدة نحوي وقالت " إيللي " بهنو :
- اسمحي لي أن أقدم لك المستر " روجرز " ... " مسز بنجتون " .
سألتها السيدة عن المدة التي ستقضيها في أثينا . وأجابت " إيللي " أنها مسافرة في الغد .. استأذنت مسز " بنجتون " لتلحق بالمجموعة التي جاءت في رحلة معها . وقالت لي " إيللي " :
- هذا يسوي الأمور ..
سألتها عما تعنيه وقالت إنها مضطرة الآن لكتابة خطاب لـ " كورا " أو العم " فرانك " وربما للعم " أندرو " ، وسألتها عن يكون العم " أندرو " لأنني لم أسمع عنه قبل ذلك ، وقالت " إيللي " :
- " أندرو لبنكوت " .. ليس عمي في الحقيقة .. إنه الوصي الرئيسي علي .. وهو محام مشهور . سألتها عما ستقوله في خطابها .. قالت إنها ستخبرهم أنها تزوجت ... فلا بد من أن تعرف زوجة أبيها والعم " فرانك " والعم " أندرو " ..
سألتها عن رد الفعل الذي ستحدثه خطاباتها فقالت :
- ستكون صدمة وسوف يثورون .. أتوقع أن يطلبوا لقاءنا في نيويورك .
هل يروك ذلك؟ نظرت إلي بقلق .. قلت :
- لا .. لا يروكني ذلك قط ...
- من المحتمل إذن أن يأتوا إلى لندن .. أو بعضهم على الأقل ... هل تغفل ذلك ؟

عرضت عليه أن يشرب شيئاً ورفض بأدب ، ثم جلس وأخذ ينقل نظراته بيني وبين "إيللي" ، ثم قال :

- أنتم معشر الشباب تتسببون لنا في صدمات ... هل كان كل شيء رومانسياً ؟

قالت "إيللي" : أنا أسفة .. أنا في الواقع شديدة الأسف .

وقال المستر "أندرو" بجفاف : أحقا ؟

وقالت إنها رأت أن تلك أفضل وسيلة لإخطارهم . وقال :

- لا أشاركك هذا الرأي يا عزيزتي ...

قالت "إيللي" إن زواجنا أمر يخصنا وحدنا ، وقالت إنها تلقت خطابين من كورا ، وقال المستر "أندرو" :

ولكنك لجأت إلى سلسلة من أساليب الخداع وساعدتك على ذلك إنسانة أخرى ...

- أعني "جريتتا"؟ إنها لم تفعل سوى ما طلبته منها ... هل الجميع غاضبون منها ؟

بالأكيد ... لقد كانت موضع ثقة الجميع ...

لقد بلغت سن الرشد وأستطيع أن أفعل ما يحلوي ...

أنا أتحدث عن الفترة السابقة على بلوغك سن الرشد .. لقد بدأ الخداع خلال تلك الفترة :

وقد ظنت في الحديث قانلاً : يجب ألا تلقي اللوم على "إيللي" يا سيدي ... لم أنت أعراف أن كل أقاربها في وطن آخر ولم يكن من السهل الاتصال

قال المستر "لينكوت" إن "جريتتا" أرسلت بطاقات بريدية من بلاد مختلفة ، وأنها أتت مهنماً بدهاء ، وسألني عما إذا كنت قد التقت

بـ "جريتتا" فأخبرته أنني لم أرها ، وأعرب عن دهشته لأنه كان يعتقد أنها

تتحدث زواجاً .. وقال بعد لحظة صمت :

أعتقد أنكما سوف تواجهان عاصفة من النقد من أسرة "إيللي" ... لقد

إن الناس لا يفكرون الآن بهذه الطريقة . ورجوتها أن تنسى هذا الموضوع . وعندما قالت : إنها ترى ذلك تصرفاً غير كريم قلت لها : إنني أعرف أمي خيراً منها .

وإنني سوف أخبرها على أي حال أنني تزوجت .. فكرت في أنه أسهل لي أن أكتب لها من الخارج قبل عودتي .. وعندما رأيت "إيللي" في المساء تكتب الخطابات للعم "أندرو" ، والعم "فرانك" وزوجة أبيها "كورا فان" "ستوفيسانت" ، كتبت بدوري خطاباً مختصراً لأمي ... أخبرتها أنني تزوجت منذ ثلاثة أسابيع فتاة رائعة الجمال شديدة الرقة .. وأن الفتاة على درجة كبيرة من الثراء ، وأنا سنهني بيتاً رائعاً ، وأنا في الوقت الحاضر نطوف بأوروبا ... وكانت نتائج مراسلاتنا مختلفة ... وصلني بعد أسبوع خطاب من أمي تعرب فيه عن سعادتها وتتمنى لي السعادة ... أما بالنسبة لـ "إيللي" ، فقد حرك خطابها النار تحت الرماد ... ووجدنا أنفسنا محاطين بمجموعة من الصحفيين يريدون أن يعرفوا أخبار زواجنا الرومانسي .

ونشرت الصحف مقالات عن زواج وريثة "جوتمان" . ووصلت بعض الخطابات من محاميتها ورجال البنوك . وتم الاتفاق على اجتماع رسمي .. التقينا بـ "سانتونكس" في موقع أرض العجر واطلعنا على الرسومات وناقشنا التفاصيل ثم ذهبنا إلى لندن لتقييم في الجناح الذي حجزناه في فندق "كلاريدج" .. ووجدنا في استقبالنا كوكبة من المستقبلين .. كان المستر

"أندرو لينكوت" أول من وصل .. كان شيخاً طويلاً نحيلاً وعرفت من لهجته أنه أمريكي ...

استقبل "إيللي" ببشاشة وسلم عليها بحرارة وقال :

- أنت تبدين في أحسن حال .. أراك مزدهرة ...

- وكيف حال العم "أندرو" ؟ كيف أتيت ؟ هل ركبت الطائرة ؟

- لا ، أتيت بالباخرة "كوين ماري" .. أهذا زوجك ؟

قالت باسمه : نعم .. هذا "مايك" ...

وقلت بارتباك وأنا أظهار بالهدوء : كيف حالك يا سيدي ؟

سريعة التأثير ، ثم أضاف :
- سوف أتحدث معك بكل صراحة وأكشف أوراقى فوق المائدة .. لست الشاب الذي كنت أحب له "إيللي" أن تتزوجه ولست من الطراز الذي كانت تتمناه أسرتها ...
- أعني شخصا أنيقا ثريا ؟
- ليس ذلك تماما ... فقد كان أبوها في شبابه عاملا واستطاع بكفاحه أن يصبح من أصحاب الملايين .
- ومن يدريك أنني لن أصبح من أغنى الرجال في إنجلترا ؟
- كل شيء جائز .. هل يبلغ طموحك هذا الحد ؟
- ليس مجرد الحصول على المال .. أريد أن أفعل شيئا .
- أهني .. تودد قليلا وقال المستر "أندرو" :
- فلنقل إنك طموح .. هذا شيء طيب ..
وقلت بحماس : إنني أبدأ من الصفر .. أنا لا شيء ولا أستطيع أن أدعي
...
- هذه صراحة محمودة وأنا أقدر لك تلك الصراحة ... والآن أحب أن أقول لك
يا "إيللي" إنني لست قريبا له "إيللي" ... وإنما أنا الحارس الوصي على
الأموال التي تركها لها أبوها ... ومن ثم أتحمّل مسؤولية نحوها ... لذلك أريد أن
أعرف كل ما أستطيع معرفته عن الزوج الذي اختارته .
قلت له إنه يستطيع القيام بما يشاء من التحريات عني ، ولكنه أخبرني أنه
يريد أن يعرف مني كل شيء ... وبالتأكيد لم يعجبني ذلك ... وحدثته عن
البرهان والوقت وبعض الشيء ، وإن كنت قد ذكرت له قدرا كبيرا من الحقيقة ولم
أخجل لذلك ... قلت له إن أبي كان سكيراً ولكن أمي طيبة وقد كدت لكي
أستغني عن الدراسة ... لم أخف عنه نشاطي في مجال العمل وكيف أنني
كنت أفضل من نظيرتي إلى أخرى ... استمع إلي مشجعاً ، ووجه إلي بعض
الأسئلة ... وقال لي في النهاية :
- لقد برهنت في حياتك أسلوب المغامرة يا مستر "روجرز" ... ليس هذا

حاولت تخفيف الموقف على قدر استطاعتي ..
سألته باسمه عما إذا كان ذلك يعني أنه يقف في صفها ، فقال إنه كمحام
لا بد أن يواجه الموقف على أساس أنه عملية قد تمت .. وقال إنه سمع أنها
اشترت قطعة أرض تنوي أن تقيم عليها بيتا ... وسألها : هل تتوین الإقامة في
هذا البلد ؟
- نعم .. هل لديك اعتراض علي ذلك ؟ قالت ذلك بغضب وأخبرته أنها
أصبحت بريطانية بزواجها مني وقال :
- من حق "فينيلا" أن تعيش في الوطن الذي تختاره .. ولكن لا تنسي
يا "إيللي" : أن البيت في "ناسو" ملك لك ..
قالت "إيللي" : إنها كانت تظن أن "كورا" تمتلك ذلك البيت .
وأكد لها المستر "أندرو" أن البيت ضمن أملاكها كوريثة لحقول البترول في
الغرب .. لم أدرك ما إذا كان الرجل يريد بذلك أن يوقع بيني وبين "إيللي" ، أم
أنه يهدف لمعرفة ما إذا كنت أجري وراء ثروتها وبذلك يضعني في حالة من
القلق ...
قال المحامي بعد ذلك : إنه أحضر معه مجموعة من الأوراق القانونية لتوقع
"إيللي" عليها ، وأخبرته بأنها على استعداد لذلك في أي وقت . وقال إن لدي
مهمة أخرى في لندن وأنه سوف يعود بعد عشرة أيام ...
رأيت ذلك وقتاً طويلاً .. وسألت نفسي : هل هذا الرجل صديق أم عدو ؟
انتبهت علي صوت المحامي يطلب من "إيللي" أن تتركه على انفراد معي ،
وقالت : إنه يستطيع أن يتحدث معنا معا . وقلت له "إيللي" في شيء من
السخرية :
- يريد العم "أندرو" أن يختبرني .. وهذا من حقه !
دخلت معه إلى غرفة الاستقبال الصغيرة وقلت له : أطلق مدفعيتك فأنا رهن
إشارتك !
ابتسم وأخبرني أنه يحب أن يؤكد لي أنه صديق وليس عدوا ، ورغم إحساسه
أنني أحب "إيللي" ، إلا أنه يحب أن يوجه نظري إلى أنها شديدة الحساسيتها

سينا ... حدثني عن هذا البيت الذي ستبنيه مع "إيللي" أخبرته أنه يقع في مدينة تسمى "ماركت كانوبيل" وقال إنه ذهب بالأمس ليرى المكان ، وشعرت بالقلق وأخبرته أنه سيكون بيتا رائعا وأن المهندس الذي يتولى البناء يدعى "رودولف سانتونكس" ، وقال إنه مهندس مشهور وأنشأ عدة مباني في أمريكا إلا أنه لسوء الحظ معتل الصحة ، وقلت إن الرجل يعتقد أنه سوف يموت ولكنني أرى أنه سوف يشفى ، وقال إنني متفائل .

ثم قال :

- لقد أجريت مشاورة مع المستر "كروفورد" وعندما سألته عن كون المستر "كروفورد" قال إنه أحد الشركاء في مؤسسة قانونية بريطانية ، وهو الذي قام بشراء أرض العجر لحساب "إيللي" ، وإن الصفقة كانت موفقة لأن الشراء تم بثمن معقول ، وقلت له إن السبب في ذلك اللعنة التي انصبت على المكان ، وقال المستر "أندرو" :

- معذرة يا "مايكل" ... ماذا قلت ؟

حدثته عن تحذير الفجرية والقصص التي راجت عن جريمة ارتكبت في ذلك المكان ، وكيف انتقلت ملكية المكان منذ وقوع الجريمة من شخص إلى آخر لأن واحدا من المشتريين لم يمكث طويلا ، وسألني المستر "أندرو" :

- ألا تخشى أنت و"إيللي" من اللعنة ؟

قلت له إننا لا نؤمن بذلك الهراء ومن حسن حظنا أننا حصلنا على المكان بثمن بخس .. وقال المستر "لينكوت" :

- كل ما أرجوه ألا تسمع "إيللي" كثيرا من القصص التي تشيع في المكان عندما تنتقلان إلى البيت الجديد

- سوف أجنبها ذلك قدر استطاعتي .. ولا أعتقد أن أحدا سوف يقول لها أي شيء

سأل المستر "أندرو" بعد برهة :

- سوف أتحدث في موضوع شائك بعض الشيء ... قلت منذ قليل إنك لم

تلتق بـ "جريت" أندرسون" ...

- نعم ... لم ألتق بها قط

- غريب ... أمر بالغ الغرابة ... ما الذي تعرفه عنها ؟

- أعرف أنها كانت مع "إيللي" منذ بعض الوقت .

- كانت مع "إيللي" منذ كانت في السابعة عشرة من عمرها

وكانت تشغل وظيفة ذات مسؤولية وتستوجب الإخلاص جاءت في البداية الولايات المتحدة لتعمل سكرتيرة ومرافقة لـ "إيللي" عندما كانت زوجة أبيها مسافرا إلى الخارج وكان ذلك يتكرر كثيرا .. كانت تحمل خطابات توصية ومنازلة بعضها سويدي والآخر ألماني ... وأصبحت "إيللي" مع مرور الوقت شديدة الارتباط بها .

- ألا يضايقك أن أقول لك هذا ؟

- أ ... حسن .. لم يكن ذلك يعنيني ... ولكنني كنت أشعر في بعض الأحيان بالغيرة ..

- ألم تطلب منك أن تقابل "جريت" ؟

- حسن ... من الصعب أن أشرح ذلك ولكن .. ربما اقترحت علي ذلك مرة أو مرتين .. ولكننا كنا مشغولين أحدهما بالآخر ولكنني في الواقع لم أكن أرغب في اللقاء بـ "جريت" .. لم أكن أريد أن يشاركني في "إيللي" أحد .

- ألماني إذا لم تكن "إيللي" قد اقترحت علي أن تحضر "جريت" زواجنا وقلت :

قلت ذلك .. وسألني : ولكنك لم توافق على حضورها .. لماذا ؟

- لا أدري ... داخلي إحساس بأن تلك السيدة التي لم أرها قط توجه حياة "إيللي" أرباب كل شيء .. أحسست أن "إيللي" تعتمد عليها وتسمح لها بإدارة

البيت .. وأنها تستجيب لكل رغبة تقترحها "جريت" .. أ ... أنا أسف يا مستر "أندرو" .. لم يكن يجدر بي أن أقول لك هذا .. ولكنني غضبت وقلت إنني

أريد حضورها لأن الزفاف بخسنا وحدنا ولا أحب أن يشاركنا فيه أحد ...

أنا الذي كنت حذرا عندما رفضت حضور "جريت" ... ولكنني كنت أريد

إيللي لي وحدي ..

- مرة أخرى أراك متفائلا .. دعنا نأمل أن توافق "جريت" على قبول مثل هذه المنحة .

- ولماذا ترفضها ؟ تكون مجنونة لو رفضت المكافأة ...
- أتعنى أن أرى تأثير "جريت" على "إيللي" يتوقف .. وأرجو أن تساعدني لعمل بذلك . سوف أفعل بالتأكيد ..

قال إنني ربما غيرت رأيي عندما أرى "جريت" ، وقلت له إنني مصر على رأيي ، وقال : شكرا لك يا "مايكل" لا ستماعك إلي في صبر .
عرض علي بعد ذلك قبول دعوة للعشاء أنا و "إيللي" مساء الثلاثاء قائلا : إن كورمان ستوفيسانت و "فرانك بارثون" ربما كانا موجودين في لندن ، وقلت إنه لا مفر من مقابلتهما وطلب مني أن أتحمل كورا لأنه يتوقع أن تعاملني بصداقة ، وقال إن حضور "روبن" غير متوقع بعد .. لم أكن أعرف من يكون "روبن" هذا ... ربما كان أحد الأقارب .. ناديت على "إيللي" قائلا إن الاستجواب قد انتهى ، وجاءت على عجل ونقلت بصرها بين "لبنكوت" وبينني أم الجهات نحوه وقبلته قائلة :

... أرى أنك كنت لطيفا مع "مايكل" ...
... أو لم أكن لطيفا مع زوجك لما استعنت بي في المستقبل .. ومع هذا فأحفظ نفسي بحق إسداء النصيح بين الحين والحين ... ما زلتما شابين

... والآن أود أن أتحدث معك يا عزيزتي على انفراد ..
... أريد أن أستمع إلى الحديث اعتقادا مني بأن الرجل يلعب على

... والكثير اكتشفت أنه يطلب من "إيللي" أن تمنح "جريت" مكافأة . وأن

... دخلت سنويا يمكن أن تسحبها وقتما تشاء ، حتى

... واشتركت معها في توديع العم

قال إنني كنت عاقلا ، وسألكه بدوري :

- أنت أيضا ... ألا تحب "جريت" لا تستطيع يا "مايكل" أن تستخدم هذا التعبير إذا لم تكن قد التقيت بعد ب "جريت" ؟
- أعني أنك تستطيع أن تكون فكرة عن شخص عندما تسمع عنه الشيء الكثير .. تستطيع أن تسمي ذلك غير .. ولكن لماذا لا تحب أنت "جريت" ؟

- أنا أتعنى السعادة لـ "إيللي" .. ولكنني لا أحب أن تقع تحت السيطرة الكاملة لـ "جريت" ... سألكه عما إذا كانت "جريت" سوف تتسبب في وقوع

المشاكل بيني وبين زوجتي ، وقال إنه ليس من حقه أن يقول شيئا كهذا .. خيم الصمت برهة وكان هو البادئ بالحديث .. ولاحظت أنه يختار كلماته بعناية ...

سألني عما إذا كانت "إيللي" قد اقترحت أن تقيم "جريت" معنا ، وقلت إنني سوف أعارض ذلك قدر ما أستطيع ، فنحن متزوجان حديثا وأريد أن يكون البيت خاصا بنا وحدنا ، وأعتقد أن "جريت" ربما حضرت لتقضي معنا بعض الوقت وهذا شيء طبيعي ... وسألكه بدوري عما إذا كان يعتقد أن "جريت" ترغب

في الحضور إلى إنجلترا والحياة مع "إيللي" وقال المستر "أندرو" :
- لا أريد أن أثير مشاعرك ضدها .. وإن كان الموضوع يشغل بالي .. إنني

أكره بعض تصرفاتها ولكن لدي إحساس بأن "إيللي" سوف تصر على حضورها لتعيش معكما .
قلت له ببطء : لا أعتقد أن "إيللي" سوف تصر على ذلك .. ولكن .. ألا

تستطيع "إيللي" أن تمنحها معاشا للتخلص منها ؟
- لا أظن .. "جريت" لا تزال شابة وهي سيدة جميلة .. وهي شديدة الجاذبية

أيضا ...
- حسن .. ربما تزوجت ... ولكن لماذا لم تتزوج من قبل ؟
- أعتقد أن بعضهم عرض عليها الزواج ولكنها لم تعثر على الرجل المناسب ... لقد بلغت "إيللي" الآن سن الرشد وقد ساعدتها "جريت" كثيرا ولما

تكافئها "إيللي" على ذلك مكافأة طيبة .. قلت بابتهاج : حسن .. هذا يكون مريحا .

الفصل السادس

خرجت في اليوم التالي للقيام ببعض المشتريات ، ووصلت إلى الفندق متأخرا عن الموعد الذي قدرته ، ورأيت 'إيللي' جالسة في البهو تتحدث مع سيدة شقراء .. لا شك أنها 'جريتتا' .. لست بارعا في وصف الأشخاص ولكني سأحاول أن أعطي صورة لـ 'جريتتا' .. لا شك أنها كما قالت 'إيللي' شديدة الجمال ، شديدة الجاذبية كما قال المستر 'لبنكوت' .. سيدة جذابة تستلفت أنظار الرجال .. تبدو أشبه بالسويديات أو الألمانيات .. عيناها زرقاوان لامعتان .. سيدة لافتة للنظر بحق !

اقتربت منهما بخفايا متريفة .. لست من الأشخاص الذين يجيدون التمثيل .. قالت 'إيللي' : أخيرا يا 'مايك' .. هذه 'جريتتا' ..

وقلت : أنا سعيد جدا لمقابلتك في النهاية يا 'جريتتا' ..

وقالت 'إيللي' بسعادة :

- كما تعرف جيدا يا 'مايك' .. لولا 'جريتتا' لما كان باستطاعتنا أن نتزوج

وقلت في شيء من الغتور : ومع هذا فقد استطعنا أن ندبر بأنفسنا الشيء

الكثير ... قالت 'إيللي' : إنني لا أتخيل ما كان سيحدث من جانب الأسرة لو لم

تقم 'جريتتا' بدورها ، وسألتها عن موقف الأسرة عندما عرفت الأمر ، وقالت

'جريتتا' إنها لم تشأ أن تكتب لها حتى لا تفسد عليها شهر العسل ، قالت إنهم

وجهوا إليها شتى الإهانات واتهموها بخيانة الأمانة ، ولكنها عرفت كيف

تواجههم ؟ وسألتها 'إيللي' عما تفعله الآن ؟ وقالت 'جريتتا' إنها تلقت عرضا

للعمل كسكرتيرة في لندن ، وسألتها 'إيللي' عما إذا كانت سعيدة ، وقالت :

- كيف لا أكون سعيدة وقد تلقيت منك ذلك الشيك الرائع ...

كانت لغتها الإنجليزية سليمة تماما ، غير مشوبة بلكنة أجنبية . قالت إنها

اشتقت أشياء كثيرة ، قالت 'إيللي' إننا بدورنا اشترينا أشياء كثيرة خلال

رحلتنا ... حقا .. صرفنا بغير حساب .. واشترينا لوحات من إيطاليا

وباريس .. دفعنا أرقاما كانت تبدو من وجهة نظري خرافية .. لقد تفتحت أمامي

افاق عالم جديد لم أكن أحلم به . قالت 'جريتتا' :

- أراكما تبدوان في غاية السعادة ... وردت عليها 'إيللي' قائلة :

أنت لم تري بيتنا بعد .. سيكون رائعا .. سوف يكون نفس الشيء الذي

حلمنا به .. أليس كذلك يا 'مايك' ؟

قالت 'جريتتا' : لقد رأيته .. استأجرت سيارة بمجرد وصولي إلى إنجلترا

وذهبت لأراه . وعندما سألتها 'إيللي' عن رأيها فيه قالت :

حسن .. أحسست 'إيللي' بصدمة شديدة ولكنني لم أشاركها في ذلك ..

أدركت أن 'جريتتا' تمزح ... انفجرت 'جريتتا' ضاحكة وقالت :

كان ينبغي أن تريا وجهي كما .. أنت بصفة خاصة يا 'إيللي' ... إنه بيت

رائع .. هذا المهندس عبقرى .. لقد التقيت به هناك .. شخصية فريدة ولكنه

مخيف .. سألتها كيف تراه مخيفا ؟ وقالت : لا أدري .. كأنما تنفذ نظراته إلى

أعماق النفس .. وهو يبدو معتل الصحة .. وسألت عما إذا كان مصابا بالسل ؟

وقلت لها إنه ليس السل وإنما أعتقد أنه مرض يتعلق بالدم ..

سألت 'جريتتا' عن الموعد الذي ينتهي فيه بناء البيت ، وقالت 'إيللي' إنه

سيتم في القريب العاجل ، وقالت 'جريتتا' :

- المال يفعل كل شيء .. أنت لا تدريين كم هو رائع أن يمتلك الإنسان المال

الذي لديك

ولكنني كنت أعرف معنى وجود المال بوفرة في يد الغني .. إنه يستطيع أن

يشترى به أفضل الأشياء .. لا يقع بصره على شيء يعجبه ويقول : لا أستطيع

أن أقتني هذا الشيء كنا نستعرض لوحة فرنسية من الفن التائييري لغنان

اسمه 'سيزان' .. كان علي أن أحفظ هذا الاسم جيدا .. كان ثمن اللوحة

خرافيا .. ولكن 'إيللي' فضلت عليها لوحة صغيرة لمنظر طبيعي لم يتجاوز ثمنها

سنة جنديها .. وكانت فرحتها بها لا تقل عن إعجابها بلوحة 'سيزان' .. وفي

مرة أخرى ونحن في باريس طلبت مني شراء رغيف من الخبز وقطعة من الجبن

المالح ، وتمتعت بتلك الوجبة أكثر من الوجبة التي تناولناها في الليلة السابقة في

أحد المطاعم الكبيرة ودفعنا فيها عشرين جنديها .. كان الشيء المحرج الآن أن

- مايك يجب أن تصبحا صديقين . إنها تحبك كثيرا ... لقد صارحتني بذلك ...
قلت : كان لابد لها ان تقول لك ذلك .
- أوه ... كلا .. إنها قليلة الكلام ولعلك لاحظت ذلك بنفسك وهي تتناول الغداء معنا .. إنها شديدة الصراحة وتقول ما يرضيها دون مواربة .. حقا ... كانت جريتا كذلك ؟ وقد قالت أثناء الغداء موجهة حديثها إلي بدرجة أكبر من إيللي :
- لعلك تعجب للطريقة التي ساعدت بها إيللي ... كانت تأثرة على الأوضاع المفروضة عليها .. وقد شجعتها على التمرد ... اقترحت عليها أن تفكر في شراء أملاك في إنجلترا وعندما بلغت سن الرشد قلت لها إنها تستطيع أن تشتري لنفسها ما يروقها وتقول وداعا للكُل في نيويورك ..
- لـ جريتا في بعض الأحيان أفكار رائعة ... أفكار لا يمكن أن تخطر ببالي قط ..
تذكرت الكلمات التي قالها المستر لبنكوت ... قال إن إيللي واقعة تحت تأثير قوي لـ جريتا ... كانت إيللي تريد التمرد على عائلتها وضربت جريتا على هذا الوتر ..
كانت جريتا في علاقتها مع إيللي تشبه أُمي ... نفس الطريقة التي ترمقني بها أُمي وفي نظراتها الخوف والقلق ..
عندما تذكرت المستر لبنكوت قلت لـ إيللي إنني دهشت لأن الرجل كان واقعا في تقبله لزواجنا ، وقالت جريتا :
- المستر لبنكوت .. إنه ثعلب هرم .
وقالت لها إيللي :
أنت تقولين ذلك دائما يا جريتا ... ولكنني أعتقد أنه صديق عزيز ومستقيم للغاية :
وقالت جريتا : حسن .. فكري كما تشائين .. أما أنا فلا أثق فيه بالمرة ...

زواجي من إيللي لم يكن مجرد لعب ولهو .. وإنما كان علي أن أتعلم أشياء كثيرة .. كيف أتعامل في المطاعم الراقية وكيف أدفع البقشيش المناسب ... وأن أتذكر أسماء الأطعمة والمشروبات ... وكان علي أن أتعلم تلك الأشياء بالملاحظة .. لم يكن باستطاعتي أن أسأل إيللي .. كذلك بالنسبة للملابس .. كانت إيللي تعاونني في الاختيار لأنها تفهم ذلك خيرا مني .. كنت أحس بالتاكيد أن مظهري لم يتحسن كثيرا ، وأن تصرفاتي لم تبلغ الحد المناسب .. ولكنني لم أكتثرت لذلك ، سرعان ما ينتهي بناء البيت وينتقل لنعيش فيه بعيدا عن كل الناس وسوف تكون لنا مملكتنا الخاصة ثم جلست في مواجهة جريتا وأنا أتساءل : ترى كيف نفكر في بيتنا .. على أي حال إنه الشيء الذي تمنيته .. سوف يكون الشاطئ أمام البيت ملكا خاصا لنا ... كنت أريد .. أريد .. كنت أشعر بالأحاسيس التي تجيش في أعماق نفسي .. كنت أتمنى زوجة رائعة وبيتا جميلا ليس لأحد مثله .. كنت أريد لبيتي الرائع أن يمتلئ بالأشياء الجميلة .. وأن تكون كل تلك الأشياء ملكا لي .. قالت إيللي :
- إنه يفكر في بيتنا .. نظرت إليها بحبة .. سألتني :
- مايك .. هل تحب جريتا ؟ ألا تحبها ؟
وقلت باستسلام : أحبها بالتأكيد .
- لم أكن أتحمّل أن تقول إنك لا تشعر بالميل نحوها ...
قلت معترضا : ما الذي يجعلك تفكرين في ذلك ؟
- لست متأكدة تماما .. إنني أفكر في الطريقة التي تتجنب بها النظر إليها حتى وأنت توجه إليها الحديث ...
- حسن ... أعتقد أن ذلك بسبب ... لأنني أشعر ببعض العصبية .
- من جريتا ؟
- نعم ... إنها توحى إلي بأفكار مخيفة ...
ضحكت إيللي وضحكت أنا أيضا ، وقلت إنني تعودت على رؤيتها ، وإنني أراها على درجة عالية من الكفاءة ولكنني أشعر إزاءها بالتضاؤل ، وقالت بارتياح :

قالت 'إيللي' بدهشة : لا تتقين فيه ؟ هزت 'جريت' رأسها قائلة :
 - أعرف أنه دعامة من دعائم الاحترام والأمانة .. إنه يتمتع بكل المزايا التي
 يتمتع بها الوصي والمحامي ...
 ضحكت 'إيللي' وقالت :
 - هل تقصدين أنه اختلس ثروتي ؟ لا تكوني حمقاء يا 'جريت' ... هناك
 عشرات المحاسبين ورجال البنوك الذين يدققون في مراجعة الحسابات .
 قالت 'جريت' : ومع هذا .. فهذا هو الطراز الذي يبتز الأموال .. وعندما
 تقع الواقعة يقول الإنسان .. لقد كان آخر رجل في العالم أتصور أن يفعل
 ذلك ...
 قالت 'إيللي' إنها تصدق ذلك بالنسبة للعم 'قرانك' ولا يدهشها أن يخون
 الأمانة فقد كانت له سوابق ، وقالت 'جريت' :
 - مظهره يوحي بالغش والخداع .. ولكنني لا أعتقد قط أنه سيكون في وضع
 يجعل منه لصا كبيرا .
 سألت 'إيللي' :
 - أهو شقيق أمك ؟ وقالت :
 إنه زوج عمتي .. تركته عمتي وتزوجت رجلا آخر وماتت منذ ستة أو سبعة
 أعوام .. وظل العم 'قرانك' مرتبطا بالعائلة .
 تطوعت 'جريت' بتوضيح الأمر قائلة :
 - هناك ثلاث ديدان تحوم حول الأسرة .. الأعمام الحقيقيون لـ 'إيللي'
 قتلوا ... واحد في كوريا ، والآخر لقي مصرعه في حادث سيارة ... لهذا لم يبق
 لها من أقاربها سوى زوجة أب فاسدة .. والعم 'قرانك' الذي يحوم حول بيت
 العائلة .. وابن العم 'روبين' الذي تسميه العم 'روبين' .. وأندرو ولبنكوت
 وستانفورد لويدي .
 سألت بدهشة : من يكون 'ستانفورد لويدي' ؟
 قالت 'جريت' : واحد آخر من الأوصياء .. أليس كذلك يا 'إيللي' هو الذي يقوم
 باستثمار المال وهي ليست بالمهمة الصعبة .. فالمال الكثير لدى واحدة مثل

'إيللي' يتني بالأرباح الوفيرة دون أدنى جهد ... هذه هي الشلة التي تحيط
 بـ 'إيللي' ... وليس لدي شك في أنك سوف تضطر لمقابلتهم في القريب
 العاجل .. سوف يأتون إلى هنا ليلقوا نظرة عليك ...
 تعلمت وأنا أنظر إلى 'إيللي' ... وقالت لي بمنتهى الرقة :
 - لا تحمل هما يا 'مايك' ... سوف يعوبون من حيث أتوا
 سألت 'إيللي' :
 - أهو شقيق أمك ؟ وقالت :
 إنه زوج عمتي .. تركته عمتي وتزوجت رجلا آخر وماتت منذ ستة أو سبعة
 أعوام .. وظل العم 'قرانك' مرتبطا بالعائلة .
 تطوعت 'جريت' بتوضيح الأمر قائلة :
 - هناك ثلاث ديدان تحوم حول الأسرة .. الأعمام الحقيقيون لـ 'إيللي'
 قتلوا ... واحد في كوريا ، والآخر لقي مصرعه في حادث سيارة ... لهذا لم يبق
 لها من أقاربها سوى زوجة أب فاسدة .. والعم 'قرانك' الذي يحوم حول بيت
 العائلة .. وابن العم 'روبين' الذي تسميه العم 'روبين' .. وأندرو ولبنكوت
 وستانفورد لويدي .
 سألت بدهشة : من يكون 'ستانفورد لويدي' ؟
 قالت 'جريت' : واحد آخر من الأوصياء .. أليس كذلك يا 'إيللي' هو الذي يقوم
 باستثمار المال وهي ليست بالمهمة الصعبة .. فالمال الكثير لدى واحدة مثل

الفصل السابع

أرسلت رسالة إلى والدي في ذلك اليوم...
 وصلوا ولكن أحدا منهم لم يمكث طويلا... ليس في الزيارة الأولى.. جاؤا ليلقوا نظرة علي، وكان من الصعب علي أن أفهمهم لأنهم كلهم أمريكيون... لم يكونوا من الطراز الذي أعرفه.. كان بعضهم مرحا للغاية مثل العم "فرايك"... مثل ما قالت "جريت". لم أكن أستطيع بحال أن أثق فيه.. عرفت أمثاله في إنجلترا.. كان ضخما ميلا للنساء، اقترض مني نقودا مرة أو مرتين.. كانت مبالغ قليلة تكفي مصاريف لمدة يوم أو يومين.. أعتقد أنه كان يختبرني ليرى ما إذا كان يسهل عليه الاقتراض مني.. أما "كورا" - زوجة أب "إيللي" - فقد اجتذبت انتباهي.. كانت في حوالي الأربعين من عمرها... تصبغ شعرها بطريقة مقززة.. وكانت تعامل "إيللي" بمنتهى الرقة والعنوية.. سمعتها تقول لها: انسي الخطابات التي كتبتها لك يا "إيللي".. يجب أن تعترفني أنها كانت صدمة شديدة لي... زواجك بهذه الطريقة.. في السر.. ولكنني أعرف أن "جريت" هي التي دبرت ذلك.. وقالت لها "إيللي":

- لا تلقي اللوم على "جريت"... لم أقصد تكديركم بحال من الأحوال.. كل ما في الأمر أنني ظننت..

- لا بأس يا عزيزتي "إيللي"... أصيب رجال الأعمال بالوجوم... ستانفورد لويد و"أندرو لبنكوت" أعتقد أن الجميع سوف يوجهون لهما اللوم لأنهما لم يخطيا بالرعاية الكافية... فضلا عن أنهما لم يكونا يعرفان شيئا عن "مايك"... لم يتوقعا أن يكون شخصية جذابة... أنا نفسي لم أتوقع ذلك.. رمقتني بإبتسامة عذبة مزيفة.. ولكنني كنت واثقا من أنها تكرمهني أشد الكراهية... عاد "أندرو لبنكوت" إلى أمريكا ولا شك أنه حذرنا.. كانت "إيللي" تبغ بعض ممتلكاتها في أمريكا لأنها قررت البقاء في إنجلترا.. ولكنها أزعجت إعطاء "كورا" مبلغا من المال لتعيش في المكان الذي يروقها.. لم يتحدث أحد عن زوج "كورا"... واستنتجت أنه سافر إلى مكان ما من العالم ولم يكن وحده بالتأكيد... وتوقعت حدوث طلاق آخر وألا تحصل "كورا" على نفقة من وراء

ذلك.. كانت امرأة مسروفة وفي حاجة إلى المعونة التي قدمتها لها "إيللي" ولا شك أن لبنكوت أفهمها أن "إيللي" سوف تقطع هذه المعونة إذا وجهت أي نقد لزوجها...
 لم يأت ابن العم "روين" .. واكتفى بإرسال خطاب لطيف لـ "إيللي" متمنيا لها السعادة ولكنه أعرب عن شكوكه في قناعة "إيللي" بالحياة في إنجلترا وقال إن العم "روين" سوف يرحب بعودتها إلى الولايات المتحدة...
 سألت "إيللي":

هل أنت مغرمة بأي واحد منهم أم أنه ليس من حقي أن أوجه إليك هذا السؤال؟
 فكرت قليلا قبل أن تقول:

- لا... لست مغرمة بأحد منهم.. ربما بدا ذلك غريبا ولكنهم في واقع الأمر ليسوا أقارب دم... أحببت أبي وأعتقد أنه كان رجلا ضعيفا خيب آمال جدي بسبب عدم توفيقه في حياة رجال الأعمال... كان يحب الذهاب إلى فلوريدا وصيد الأسماك.. تزوج بعد ذلك "كورا" ولم أكثر بها قط كما لم تكثر بي.. أما أمي فأنا لا أنكرها بالتأكيد... أحببت العم "هنري" والعم "جو" لأنهما كانا أكثر مرحا من أبي.. كان جدي رجلا مريضا وكانت صدمة شديدة له عندما فقد أولاده الثلاثة...

لم يكن جدي يحب "كورا" ولم يكن معنا ببقية الأقارب البعيدين.. العم "روين" على سبيل المثال... لهذا اتخذ الإجراءات اللازمة لوضع ثروته تحت الوصاية وذهب معظمها إلى المتاحف والمستشفيات ولكنه ترك لـ "كورا" ولزوج ابنته العم "فرايك" مبالغ معقولة... وسألت "إيللي":

- ولكنه ترك معظم الثروة لك؟
 نعم.. وقد سبب له ذلك بعض القلق ومن ثم فعل كل ما يستطيع ليكون تحت رعاية شديدة... بواسطة العم "أندرو" ومستر "ستانفورد لويد"...
 المحامي ورجل البنوك؟
 نعم... أعتقد أنه فكر في أنني لا أستطيع إدارة ثروتي بطريقة جيدة..

برأي . وما كنت أستطيع منع " ستانفورد " من غشها لو أنه حاول ذلك .. قلت لها بعد انصرافه :

- حسن .. هذا آخر واحد من المجموعة

- أنت لم تهتم بأي واحد آخر منهم

- أعتقد أن زوجة أبيك كلبة ذات وجهين .. أسف يا إيللي ، فربما لم يكن يحق لي أن أقول ذلك .

- ولم لا ؟ لا أعتقد أن الصواب جانبك في هذا الرأي .

- لاشك أنك كنت وحيدة يا إيللي .

- نعم ... كنت وحيدة ... عرفت بعض الفتيات في مثل سني ... ذهبت إلى مدرسة راقية ، ولكنني لم أشعر بالحرية قط .. لو تعرفت على صديقة سرعان

ما يفرقون بيننا ويفرضون علي أخرى بدلا منها ، لو تصادف وعرفت صديقا فإنهم يحاولون بيننا . ولم أتعرف في الواقع على إنسان أهتم به حتى جاءت

"جريتتا" وأصبح كل شيء مختلفا .. رأيت لأول مرة إنسانا يهتم بي حقا .. وكان ذلك شيئا رائعا قلت وأنا أدير وجهي تجاه النافذة : أريد

- ما الذي تريد ؟

- أوه .. لا أدري .. ربما كنت أحب ألا تكوني معتمدة تماما على "جريتتا" ... إنه أمر سيء أن يعتمد الإنسان كلية على أي شخص .

سألتني بقلق : ألا تحبها يا "مايك" ؟

قلت محتجا : أحبها ... أحبها حقا ... ولكن يجب أن تدركي يا إيللي أنها إنسانة غريبة بالنسبة لي .. كما أنني لم أفهم من قبل مدى ارتباطكما ببعض .

- لا تكن غيورا يا "مايك" ... إنها الإنسان الوحيد الذي كان طيبا معي .. الوحيدة التي اهتمت بي قبل أن أقابلك .

- ولكننا تقابلنا وتزوجنا .. وسوف نعيش منذ الآن معا في سعادة

- إنني أحاول قدر المستطاع أن أرسم صورة واضحة للأشخاص الذين دخلوا حياتنا .

أو بتعبير آخر الذين دخلوا حياتي لأن إيللي كانت تعرفهم قبل ذلك .. وكانت

والشيء الغريب أنه سمح لي بالتصرف فيها عند بلوغي سن الرشد .. لم يشترط أن أتسلمها عند بلوغي سن الخامسة والعشرين كما يفعل الكثيرون ..

أعتقد أنه فعل ذلك لأنني فتاة . قلت لها مفكرا : لا أعتقد أنه كان يحبني لو عرفني .

- نعم بصراحة أعتقد أنه كان سيصدم ... قلت بإشفاق :

أيتها المسكينة " إيللي" !

- لماذا تقول ذلك ؟

قلت لك ذلك من قبل .. ألا تذكرين ؟

- نعم .. قلت :

الفتاة الغنية الصغيرة المسكينة ...

قلت لها في تردد :

- وقتها لم أقصد هذا المعنى .. لم أقصد أنك مسكينة لأنك غنية .. أنت محاطة بأناس كثيرين .. وكثيرون يطلبون أشياء منك ولكن أمرك لا يعينهم

أليس هذا صحيحا ؟ قالت " إيللي" بارتياح : ...

- أعتقد أن العم "أندرو" يهتم بي .. كان لطيفا متعاطفا معي دائما .. أما الآخرون .. فلا .. أنت على حق تماما يا "مايك" .. كانوا يطلبون أشياء

فحسب

- هل يأتون لاقتراض المال ومساعدتهم في الأزمات ؟

قالت " إيللي" بهدوء :

هذا الأمر طبيعي .. ولكنني انتهيت الآن منهم جميعا .. لقد جئت لأعيش في إنجلترا .. ولن أراهم بعد ذلك كثيرا ...

كانت مخطئة في ذلك ولكنها لم تكن قد أدركت هذه الحقيقة بعد ... جاء ستانفورد لويد بعد ذلك يحمل مجموعة كبيرة من الوثائق والأوراق لتوقع

إيللي عليها .. وتحديث معها عن الاستثمارات والسندات والممتلكات التي تخصها .. كانت كل تلك الأمور كالألغاز بالنسبة لي ، لم أكن أستطيع نصحتها أو الإشارة عليها

ولكنك لا تعرفين أن الرحلة بالطائرة لا تزيد على بضع ساعات .. وضع يديه على كتفيها النحيلتين كان يبدو مريضا بشكل مفرغ .

وقال :
 - لو كان الأمر بيدي لوقفت بجانبك لأرعاك .. لم يبق من العمر سوى القليل .. عليك أن تدافعي عن نفسك بنفسك .

- انس تحذير العجورية يا "سانتونس" وتعال معنا لتطلعنا على كل ركن من البيت ..

طفنا بالبيت .. كانت بعض الغرف لا تزال خالية ولكن أغلب الأشياء التي اشتريناها من أثاث ولوحات وستائر كانت موجودة .. قالت "إيللي" إننا لم نطلق بعد اسما على البيت واقترحت تسميته "بالقلاع" وتساءلت عما إذا كنا نطلق عليه الاسم الشائع : "أرض الفجر" ، ورفضت ذلك بحزم ولكن "سانتونس" قال : إن الاسم سوف يظل ملتصقا به .. جلسنا بعد ذلك في الشرفة نتأمل الشمس الغاربة ونفكر في اسم للبيت حتى هبط الظلام وبخنا وأسدلنا الستائر على النوافذ .. كنا قد أحضرنا معنا بعض المأكولات في انتظار وصول مجموعة الخدم التي ستصل في الغد ، وقالت "إيللي" :
 ربما كرهوا المكان لعزلته وأصروا على الذهاب .

وقال "سانتونس" : سوف تضطرون في هذه الحالة إلى مضاعفة أجورهم لكي يقبلوا البقاء . وقالت "إيللي" ضاحكة :
 - هل تعتقد أن كل إنسان يمكن شراؤه بالمال ، جلسنا حول المائدة نأكل في سعادة وابتهاج ... حتى "سانتونس" كان يبدو قويا نشطا .. وحدث بعد ذلك ما حدث بصورة مفاجئة .. اخترقت قطعة من الحجر زجاج النافذة وسقطت فوق المائدة وحطمت كذلك كأسا وتناثرت قطع من الزجاج المحطم وخذشت خد "إيللي" .. أنهلقتنا المفاجأة لحظة ثم قفزت مندفعاً نحو النافذة وفتحتها وذهبت إلى الشرفة .. لم أر أحدا .. عدت إلى الصجرة وأخذت أجفف جرح "إيللي" بمنشفة من الورق وأنا أطمئنها إلى أن الجرح سطحي ، وقالت "إيللي" :
 - لماذا يفعل أحدهم ذلك ؟

وقلت لها :

غلمتتا أننا تصورنا أنهم سيخرجون من حياة "إيللي" ولكنهم لم يفعلوا ... ولم يكن في نيتهم أن يفعلوا ... على أية حال لم نكن قد أدركنا تلك الحقيقة حينئذ ..

بدأ الجانب الإنجليزي من حياتنا يظهر .. انتهى بناء بيتنا .. تلقينا برقية من "سانتونس" طالبا منا الحضور في الغد ... ركبنا السيارة ووصلنا مع غروب الشمس ، وكان "سانتونس" في انتظارنا أمام الباب .. عندما وقع بصري على البيت شعرت بشيء يقفز داخلي ويخترق جلدي ! إنه بيتي وقد حصلت عليه أخيرا ! ضمنت "إيللي" إلى صدري بعنف وقال "سانتونس" :
 - هل أعجبك ؟ قلت بابتهاج : إنه قمة ...

قال : نعم .. إنه أحسن بيت أقمته .. لقد كلفكم كثيرا ولكنه يستحق كل بنس أنفق عليه .

لقد تجاوزت الميزانية .. أحمل زوجتك يا "مايك" لتجتاز العتبة .. هذا ما يفعله العروسان وهما يدخلان بيتهما الجديد ... احمر وجهي خجلا ولكنني حملت "إيللي" ... كانت خفيفة الوزن للغاية واجتزت العتبة وتعثرت قدمي وكدت أقع ، ورأيت وجه "سانتونس" عابسا ، وقال :
 - كن طيبا معها يا "مايك" .. اعن بها . لا تسمح لأي مكروه يقع لها .. إنها لا تستطيع العناية بنفسها وإن كانت تعتقد أنها تستطيع ...

وسألت "إيللي" :
 - ولماذا يقع لي مكروه ؟

قال "سانتونس" :
 - لأنه عالم شرير مملوء بالأشرار .. ويوجد حواك يا صغيرتي بعض الأشرار .. لقد رأيت واحدا أو اثنين منهم .. رأيتهم هنا .. إنهم يجوسون حول المكان كالفتران ...

قالت "إيللي" :
 - لن يضايقونا .. لقد عانوا جميعا إلى أمريكا .

وقال "سانتونس" :

أولاد .. أنت تعرفين شقاوة الصبية ... أعتقد أننا محظوظون لأنهم اكتفوا

بإلقاء حجر ولم يستخدموا بندقيّة رش .

- ولكن لماذا يفعلون ذلك ؟ لماذا ؟

قلت لها : لا أعرف .. مجرد شقاوة

وقفت إيللي فجأة وقالت : أنا خائفة .. أنا خائفة .

وقلت لها : سوف نبحث الأمر غدا ... نحن لا نعرف الكثير عن الجيران

المحيطين بنا .

سألت إيللي بقلق : هل السبب أننا أغنياء وهم فقراء ؟

قال سانتونكس ببطء :

- كلا .. لا أظن ذلك .

وقالت إيللي :

- السبب أنهم يكرهوننا .. يكرهون "مايك" ويكرهونني .. ولكن لماذا ؟ لأننا

سعداء ؟

هز سانتونكس رأسه . وقالت إيللي " إن أي ساكن لأرض الغجر سوف

يقابل بالكراهية ، وإنهم ربما نجحوا في إيدائنا في المرة القادمة ... صيبت لها

كأسا من الشراب وطلبت منها أن تتجرعه وتنسى ما حدث ، ولكنها نظرت إلي

بصلابة قائلة :

- يحاول بعضهم إبعادنا عن المكان ... عن البيت الذي بنيناه وأحببناه ..

وقلت لها : إننا لن نسمح لأحد بذلك ، وإنني سوف أسهر على حمايتها ..

التفتت نحو سانتونكس وسأته عما إذا كان قد التقى بأحد في فترة البناء

وعما إذا كان بعضهم قد أخبره بشيء ، فقال سانتونكس :

- ربما تخيل الإنسان بعض الأشياء .

- إذن فقد وقعت بالفعل بعض الحوادث ؟

- تقع دائما بعض الحوادث أثناء بناء البيوت ... ولكنها ليست بالأحداث

الخطيرة .. يسقط عامل من فوق السلم ... أو يقع ثقل على قدمه .

- لا شيء أكثر من ذلك ؟ لا شيء عن قصد ؟

قلت لها :

قال سانتونكس :

- كلا .. أقسم لك على ذلك .

التفتت إيللي نحو قائلة :

- هل تذكر تلك الفجيرة يا "مايك" ؟ لقد حذرنا من المجيء إلى هنا ...

- إنها امرأة مجنونة ... ليست سليمة العقل .

قالت إيللي :

- لقد بنينا منزلنا فوق أرض الغجر .. فعلنا ما حذرنا منه ...

ضربت إيللي الأرض بقدميها وهي تقول :

- إن أسمح لهم بإبعادنا .. سوف نكون سعداء هنا ...

وقلت لها مطمئنا :

- إن يبعدنا أحد عن هذا المكان ...

قلنا ذلك كأننا نتحدى القدر

الفصل الثامن

هكذا بدأت حياتنا في أرض الفجر ... لم نعثر على اسم آخر للبيت وقالت
إيللي : " ...
- سوف نسميه أرض الفجر ... كنوع من التحدي .. إنه ملكنا وليذهب تحذير
العجورية إلى الجحيم ... عانت " إيللي " لمرحها مرة أخرى في اليوم التالي
وأعدنا أنفسنا للاستقرار والتعرف على الجيران والوسط المحيط بنا ..
مشيت مع " إيللي " إلى الكوخ الذي تعيش فيه العجورية وتمنيت أن تراها وهي
مشغولة بفلاحة حديقتها حتى تراها " إيللي " امرأة عادية ... ولكننا لم نجدها ..
كان باب الكوخ مغلقا وسالت الجيران عما إذا كانت العجورية ماتت ، وقالت
جارتها :

- ربما رحلت .. إنها ترحل بين الحين والحين .. أنت تعرف طباع الفجر ..
هل أنتم أصحاب البيت الذي أنشئ حديثا ؟
قلت : نعم انتقلنا إليه مساء أمس ..
وقالت السيدة : بيت رائع .. ذهبنا جميعا لنراها أثناء البناء .. اختلف شكل
المكان بعد بناء منزل مكان تلك الأشجار الكثيرة ..
التفتت السيدة نحو " إيللي " وسألته عما إذا كانت أمريكية ؟
وقالت " إيللي " :
- نعم .. أو بمعنى أصح كنت أمريكية لأنني إنجليزية الآن بحكم زواجي من
إنجليزي ..

- وهل قررت الاستقرار هنا ؟
- هذا ما أرجوه
أنت تعرفين أن المكان منعزل ولا يحب الناس الحياة في الأماكن المنعزلة .
وقالت " إيللي " :
- تعنين أرض الفجر ؟
- أه أراك تعرفين الاسم الشائع

قالت " إيللي " إنها سوف تحافظ على الاسم حتى تضمن وصول الخطابات ،
وعندما قلت إنني أفضل ألا تصلنا رسائل قط ...
قالت : ولكنني أريد أن أسمع أخبار " جريتا " .
وقلت باستياء : دعك من " جريتا " .. هيا بنا نستكشف المكان ... ذهبنا إلى
كنجستون بيشوب " ووجدناها قرية لطيفة والناس عاديون والمحال لطيفة ولكن
مجموعة الخدم التي استخدمناها لم تحب المكان ومن ثم قررنا استئجار
سيارات نقلهم في أيام إجازاتهم إلى أقرب مدينة على الشاطئ .. لم يتحس
القدم للمكان ، وقلت لـ " إيللي " :

لا يمكن أن يرجع قلقهم إلى الضوف من أن يكون البيت مسكونا لأنه حديث
البناء ، وإنما يرجع السبب إلى كثرة منحنيات الطريق من خلال الأشجار
الكثيفة حيث كانت تقف تلك السيدة العجورية واعترضت طريقنا فجأة ، وقلت إنه
من الأفضل أن نقطع تلك الأشجار ونقيم مكانها بعض الحقائق : أخذنا نضع
السطح للمستقبل ... وجاءت " جريتا " لتمكث معنا في عطلة نهاية الأسبوع
وهذا على حسن ترتيب الأثاث واللوحات واختيار الألوان ... ثم استأذنت
حتى لا تعكر علينا صفو شهر العسل قائلة إنها مضطرة للعودة إلى عملها .
وجدت " إيللي " متعة في مرافقتها لمشاهدة البيت ، واتضح لي مدى تعلق " إيللي "
بها ، ولكنني كنت سعيدا عندما رأيت " جريتا " تعود إلى لندن ، لأن بقاها في
المزل كان يثير أعصابي .

تقبلنا المجتمع المحلي بعد قضاء أسبوعين في المكان وتعرفنا على " الرب "
جاء لزيارتنا بعد ظهر أحد الأيام . أعلن الخادم عن مقدم الميجور " فيليبوت " ..
وبحرد أن رأيت قلت لـ " إيللي " هامسا :

" الموب " وعندما سألتني عما أعنيه قلت : إن الأهالي يعاملونه على أنه
السيد ... كان رجلا مرحا في الستين من عمره ، يرتدي الملابس الريفية وله
شارب خشن قصير .. اعتذر لعدم حضور زوجته معها لأنها مريضة .. جلس
ومضى يتحدث حديثا غير جذاب في موضوعات متفرقة .. لم يوجه إلينا أسئلة
مباشرة ولكنه سرعان ما أدار دفة الحديث نحو هواياته .. تحدث عن سباق
ليل ليس له آخر

الميجور في جمع قطع الزجاج المتناثرة ، وقالت "إيللي" :
" لا أعتقد أن المسز" لي " شريرة .. كنت حمقاء عندما شعرت بالخوف
منها .."
قال الميجور بدهشة مرة أخرى :
" هل كان الأمر مفزعا إلى هذا الحد ؟"
قلت بسرعة : لا عجب إذا كانت قد شعرت بالخوف .. كان الكلام تهديدا أكثر
من تهديرا .
قال الميجور غير مصدق : تهديد !
" بدا لي الأمر كذلك .. ثم وقع لنا بعد ذلك حادث في أول ليلة لوصولنا .
أخبرته بقصة الحجر والثاظة المحطمة ، وقال إنه تحدث أشياء غريبة في بعض
الاماكن ، والتفت نحو "إيللي" قائلا :
" أنا أسف لما حدث .. شيء مفزع أن يحدث شيء كذلك في أول ليلة ..."
وقالت "إيللي" :
" لقد تغلبت على الخوف الآن ولكن .. ولكن هناك شيء آخر حدث بعد ذلك
أخبرته به أيضا .. نزلنا إلى الحديقة ذات صباح وعثرنا على طائر ميت وقد
اطرق جسده سكين به ورقة مكتوبة بخط رديء تقول : " غادروا هذا المكان قبل
أن نازل عليكم الكوارث ."
بدا الغضب على وجه " فيليبوت " ثم قال :
" كان ينبغي أن تخطروا الشرطة بذلك ."
قلت له إننا لم نشأ أن نفعل ذلك حتى لا نشير غضب الفاعل فيتمادى في
عدوانه علينا .. وقال إن هذا العبث لابد أن يقف . فقد يعتبره البعض تسلية أو
مراحا ، ثم عاد يسأل :
" أليس من المحتمل أن يكون لأحدهم ضغينة عليكما أو على أحدهما لأسباب
شخصية ؟"
قلت : لا .. فنحن غريبان عن المكان .
قال الميجور إنه سيبحث الأمر ووقف وهو يستعرض المكان بنظراته وقال :

الخيال ثم عن فلاحه الحداثق وأنسب النباتات التي تصلح لتربية المكان ... قال
إنه زار الولايات المتحدة مرتين .. واكتشف أن "إيللي" غير مهتمة بسباق الخيل
وإنما تهوى الركوب . أخبرها أنها إذا كانت سوف تحتفظ بخيول للركوب
فباستطاعتها تمهيد ممر خاص بين أشجار الصنوبر يؤدي إلى الأرض السبخة
حيث تستطيع أن تطلق لجواها العنان .. ثم تطرق الحديث إلى بيتنا
والقصص التي تدور حول أرض الفجر ، وقال :
- أرى أنكما على علم بالاسم المحلي وبكل الخرافات التي يروجها الناس
أيضا ...
قلت إنها مجرد شائعات تروج أغلبها مسز"لي" العجوز ... وقال " فيليبوت" :
- أوه ... العجوز المسكينة "إيستر" ... هل ضايقتكم ؟
سألته : هل هي مختلة العقل ؟
- ليس إلى الدرجة التي تتظاهر بها .. أنا أعتبر نفسي مسؤولا إلى حد ما ..
تركها تعيش في الكوخ رغم أنها تسبب أحيانا بعض المضايقات .
- قراءة البخت ؟
- كلا .. ليس ذلك تماما ... لماذا .. هل استطلعت لكما المستقبل ؟
قالت "إيللي" :
لا أدري ما إذا كنت تسمي ما حدث قراءة للمستقبل ... كان تحذيرا لنا حتى
لا نأتي إلى هذا المكان ...
قال الميجور " فيليبوت " بدهشة :
- يبدو لي ذلك غريبا .. فقد اعتادت عند قراءة الطالع أن تقول كلمات
معسولة .. مثل الزواج السعيد وإنجاب ستة أطفال والحصول على ثروة كبيرة ..
اعتاد الفجر عندما كنت صبيا أن يقيموا معسكراتهم في هذا المكان ...
أحببتهم رغم أن بعضهم كان يسرق .. أحست الأسرة أنها مدينة لبعض الشيء
للمسز"لي" ... فقد أنقذت حياة أخي عندما كان طفلا .. أخرجته من القرعة
عندما سقط بين كتل الثلج التي بدأت تنزوب ...
اصطدمت يدي بعنقضة السجائر وسقطت على الأرض حطاما وساعدني

- بيتكم هذا يروقني رغم أنني من المحافظين الذين يميلون إلى البيوت القديمة أحب المباني القديمة ولا تروقني المباني الحديثة التي تبدو مثل علب الكبريت ولكنني أحب هذا البيت فهو عادي وعصري ومضيء .. إذا نظرت من النوافذ ترون أشياء ، مختلفة تماما عما رأيتم من قبل .. من الذي صمم هذا البيت أهو مهندس إنجليزي أم أجنبي؟ حدثت عن " سانتونكس " وقال إنه قرأ عنه في إحدى المجلات ... وقال إنه يحب أن يراه ، وإن لم يكن هو شخصيا من الفنانين .. ثم وجه إلينا الدعوة لزيارته وتناول النداء معه ومع زوجته .. حتى نرى بيته الذي أنشيه عام ١٧٢٠ ، وقلت له : هل كنتم تعيشون في المكان منذ ذلك الحين؟ قال إنهم كانوا يعيشون هنا منذ أيام الملكة " إليزابيث " ومرت بهم أيام حلوة وأخرى مرة .. وإنهم باعوا بعض الأرض في الأزمان ثم استردوها عندما تحسنت الأحوال . حينما ثم انصرف ليركب سيارة عتيقة حال لونها ، وأدركت مع ذلك قيمته .. إنه السيد بحق في هذه المنطقة ولكننا اكتسبنا استحسانه .. لقد شعر بالميل نحو " إيللي " ، وأستطيع أن أقول إنه أحبني أيضا ..

كانت " إيللي " تجمع ما تبقى من الزجاج المكسور عندما عدت إلى غرفة الاستقبال ، وقالت إنها أسفة لتحطيم المنفضة وقلت إنني سأشتري غيرها ، وسألتني :
- ما الذي أفزعك يا " مايك " ؟ فكرت برهة ثم قلت :
- شيء قاله " فيليبوت " نكرني بحادث وقع لي أثناء طفولتي .. كنت ألعب مع صديق لي فوق سطح بركة متجمدة ... لم يتحملنا الجليد وسقط صديقي في البركة وغرق قبل أن يتمكن أحد من انتشاله .
وقالت " إيللي " :
يا له من حادث فظيع
- نعم .. لم أتذكر ذلك الحادث حتى تكلم " فيليبوت " عن أخيه .. لبينا دعوة " فيليبوت " في الأسبوع التالي ... وصحبنا في جولة لمشاهدة البيت والصور المعلقة على الجدران ...
عرفت أنها صور لبعض أفراد الأسرة ، توقفت أمام صورة لسيدة جميلة ،

وقال " فيليبوت " باسمنا :
لقد انتقيت أفضلها .. أثارت صاحبة الصورة في عهدنا بعض المتاعب ... ذهبت بدس السم لزوجها ربما كان الاتهام باطلا لمجرد أنها أجنبية ...
القطعا " جير ساف فيليبوت " أثناء إحدى رحلاته إلى الخارج .
كان بعض الجيران مدعويين معنا للغداء حتي يتم التعارف بيننا ... الدكتور " هو " رجل شيخ يبدو عليه التعب وانسحب قبل تناول الغداء .. القس الشاب وهو قوي وإنسان جاد ... وسيدة في منتصف العمر صوتها خشن .. وشابة سمراء طويلة جميلة تدعى " كلوديا هارديكاسل " ، عرفنا أنها تعشق ركوب الخيل وإن كانت إصابته بالحساسية التي تتسبب لها في الحمى الخريفية تعوقها عن ممارسة هوايتها .. ولما كانت " إيللي " مصابة هي الأخرى بالحساسية وتهوى ركوب الخيل ، فقد ساد بينهما الوداد .. وقالت " إيللي " لـ " كلوديا " إن الأطباء في أمريكا أعطوها كبسولات ناجحة وإنها سوف تهديها بعضها ، ورحبت " كلوديا " بذلك ..
كنت أجلس بجانب مسز " فيليبوت " .. وهي سيدة طويلة تفرط في الحديث عن صحتها والأطعمة التي تسبب لها المرض . وبعد حديث طويل عن مرضها ومغامراتها مع الأطباء سألتني عن عملي ، وتحاشيت الإجابة ، وكذلك حاولت المسز " كورجي " نفس الشيء ولكنني حولت دفة الحديث إلى موضوع نقص الأطباء البيطريين ...
خرجنا بعد ذلك إلى الحديقة واقتربت مني " كلوديا هارديكاسل " وقالت لي في صوت هامس : إنها سمعت عني من أخيها ، وعندما أعريت لها عن دهشتي قالت : إنه المهندس الذي بنى بيتكم ، وقلت في دهشة :
- هل تعنين أن " سانتونكس " أخوك ؟
- هو نصف أخ .. أنا لا أعرفه جيدا ولم نتقابل إلا نادرا ...
سألتها عما إذا كانت قد رأت بيتنا ، وقالت إنها لم تره بعد أن تم البناء ، وأخبرتها بضرورة المجيء لرؤيته وقالت : لن أحبه .. أنا لا أحب البيوت الحديثة ... طراز " كوين آن " هو المفضل لدي .. وقالت : إنها سوف تدعو

'إيللي' للانضمام إلى نادي الجولف وإنهما سوف يركبان الخيل معا ، وأخبرتني أن 'إيللي' تنوي شراء حصان أو حصانين مما أشعرني أنهما أصبحتا صديقتين .

بينما كان 'فيليبوت' يطلعني على اصطبلاته قال عن 'كلوديا':

- إنها فارسة ممتازة ولكنها دمرت حياتها .. تزوجت أمريكيا اسمه 'لويد' .. وهو شيخ يكبرها كثيرا .. ولم تستطع الاستمرار معه وافترقا بعد قليل من زواجهما واسترجعت اسمها قبل الزواج .. لا أظن أنها ستتزوج مرة أخرى... للأسف أصبحت عدوة للرجال ..

بينما كنت أقود السيارة في طريق عودتنا إلى البيت .

قالت 'إيللي' إنها سعيدة بجيرانها ، وسبقتنني إلى داخل البيت بينما كنت أضع السيارة في الجراج .. وبينما أنا أمشي نحو البيت سمعتها تعزف على جيتارها الأسباني وتغني بصوت دافئ: إحدى الأغنيات المفضلة لدي .. كانت الأغنية تقول :

ولد الإنسان ليعيش مع الأفراح والأحزان .

وعندما ندرك هذه الحقيقة جيدا ..

خلال رحلة الحياة ... نمر الرحلة بسلام ...

في كل ليلة وفي كل صباح .

يولد البعض مع الشقاء

في كل ليلة وفي كل صباح .

يولد البعض في أحضان السعادة والهناء .

يولد البعض ليعيشوا في رخاء .

ويولد البعض لليل ليس له آخر .

رفعت 'إيللي' عينيها لتراني وسألتني :

- لماذا تنظر إلي هكذا يا 'مايك'؟ كأنما تحبني ..

- إنني أحبك ولا شك .. هل كنت ترين في نظراتي غير ذلك ؟

- ولكن فيم كنت تفكر ؟ أجبني ببطء وفي صدق :

- كنت أفكر فيك كما رأيتك لأول مرة ... تقفين بجوار شجرة صنوبر داكنة...

نعم كنت أتذكر اللحظة التي رأيت فيها 'إيللي' للمرة الأولى .. المفاجأة

والانزعاج ...

ابتمت 'إيللي' بركة وعادت تغني بصوتها العذب :

في كل ليلة وفي كل صباح .

يولد البعض في أحضان السعادة والهناء .

يولد البعض في أحضان السعادة والهناء .

ويولد البعض لليل ليس له آخر .

لا يدرك الإنسان اللحظات المهمة في حياته إلا بعد فوات الأوان .. كان يوم

عودتنا بعد الغداء مع 'فيليبوت' ونحن في قمة السعادة واحدا من تلك

اللحظات ولكنني لم أدرك ذلك وقتها ... ولا حتى فيما بعد ... طلبت من 'إيللي'

أن تغني لي أغنية 'الفراشة' ، وغنت لي 'إيللي' :

أيتها الفراشة الصغيرة وأنت تلعبين في الصيف .

امتدت يدي دون قصد لتطردك بعيدا

ألسنت فراشة مثلك؟ أم أنت رجل مثلي؟

لأنني أرقص وأشرب وأغني

حتى تمتد إلي يد تلمس جناحي

إذا كانت الأفكار هي الحياة ..

والقوة والأنفاس والتفكير في الموت ..

سعيد أنا إذن

سواء مت أو كتبت لي الحياة

أواه يا 'إيللي' .. 'إيللي' ..

الفصل التاسع

من المثير للدهشة في هذه الحياة أن الأمور لا تجري على النحو الذي نتوقعه.. انتقلنا إلى بيتنا وابتعدنا عن الجميع وفق خطتي التي رسمتها .. إلا أن المشاكل تزاхمت قادمة عبر المحيط ومن جهات أخرى . على رأسها كانت زوجة أبيها التي أرسلت خطابات وبرقيات تطلب من "إيللي" أن تذهب لمقابلة وكلاء الأملك قائلة إنها أعجبت بمنزلنا وتريد شراء بيت لها في انجلترا ... لتقضي في بريطانيا شهرين من كل عام ، ووصلت بالفعل طالبة معاينة بيوت في المناطق المجاورة .. واختارت بيتا في النهاية على بعد أربعة عشرون كيلو مترا من منزلنا .. لم نكن نريدها هنا ولكننا لم نستطع أن نقول لها ذلك . كان ذلك آخر شيء تريده "إيللي" .. كنت واثقا من ذلك ...

ووصلت بضع برقيات .. يبدو أن العم "فرانك" تورط في مشكلة ... عملية احتيال يتطلب إخراجها منها قدرا كبيرا من المال ... وتبودلت البرقيات بين "إيللي" والمستر "لينكوت" .. ثم اتضح وجود بعض المشاكل بين "ستانفورد لويد" و"لينكوت" .. كان هناك خلاف حول الاستثمارات الخاصة بـ "إيللي" .. لم أكن أتصور أن أقارب "إيللي" في أمريكا يمكن أن يستقلوا الطائرة ثم يعودوا بعد أربع وعشرين ساعة ... فعل "ستانفورد لويد" ذلك ثم أعقبه "أندرو لينكوت" ..

كان على "إيللي" أن تسافر إلى لندن لتقابلهم .. وأثناء تلك المشاكل اكتشفنا أنا و"إيللي" حماقتنا .. لم نكن قد استكشفنا كل أملاكنا بعد .. لم نكن نعرف سوى المنطقة المحيطة بالبيت وحسب .. سلطنا ذات يوم ممرا بين الأشجار الكثيفة وعثرنا في نهايته على مبنى أبيض أشبه بالمعبد . كان في حالة جيدة .. أعدنا طلابه وزودناه ببعض قطع الأثاث والأكواب وزجاجات الشراب .. اقترحت "إيللي" تظهير المر حتى يسهل علينا الصعود إلى المكان ، واعترضت على ذلك حتى لا يعرف المكان أحد سوانا .. ورأت "إيللي" تلك فكرة رومانسية ، وقلت لها :

يجب أن تبقى هذا المكان سرا بالنسبة لـ "كورا" .. ووافقتني "إيللي" على ذلك بعدما كنا نهبط من ذلك المكان المرتفع بعد انصراف "كورا" زلت قدم "إيللي" والثوب ركبته .. وقال الدكتور "شو" إنها تحتاج إلى أسبوع حتى تعود الركبة إلى حالتها الطبيعية ... عندئذ أرسلت "إيللي" تستدعي "جريتتا" ولم أستطع الامراض ... وصلت "جريتتا" وكان وصولها نعمة كبرى بالنسبة لـ "إيللي" .. تولت "جريتتا" إدارة البيت بكفاءة .. وفي نفس الوقت أنذرنا الخدم بعدم رغبتهم في الاستمرار في العمل لأن المكان - علي حد قولهم - موحش ، ولكنني أعتقد أن "كورا" هي التي ضايقتهم ... نشرت "جريتتا" إعلانا في الصحف وتقدم لنا على الفور خادمان آخرون ... رعت "جريتتا" ركبة "إيللي" وأخذت تسليها وتحضر لها كل ما تريده من كتب وفواكه وأشياء أخرى لا أعرف شيئا عنها وكان من الواضح أنهما في غاية السعادة معا ،، وبقيت "جريتتا" ولم ترحل بعد ذلك وقالت لي "إيللي" :

أعتقد أنك لن تعارض في بقاء "جريتتا" بعض الوقت .. وقلت مرغما : إنني إن أعترض ، وقالت إن هناك أمورا نسائية كثيرة تتطلب وجودها .. ويوما بعد يوم لاحظت أن "جريتتا" تدس أنفها في كل شيء وتصدر الأوامر ...

وتظاهرت برضائي عن وجود "جريتتا" معنا . ولكن حدث ذات يوم بينما كانت "إيللي" راقدة رافعة قدمها في غرفة الجلوس ، وكنت واقفا مع "جريتتا" في الشرفة . أن نشب شجار فجأة بيني وبين "جريتتا" ، وفقدت أعصابي واتهمتها بأنها فتاة مسترجلة وأنها تدس أنفها في كل شيء ، وردت علي

"جريتتا" بحدة ، وارتفع صوتنا إلى الدرجة التي جعلت "إيللي" تقوم وتسرع إلينا ... وقفت تنقل نظراتها بيننا ، وقلت لها :

أنا أسف يا عزيزتي .. أنا شديد الأسف ... عدت إلى الداخل وساعدت "إيللي" في الجلوس على الأريكة ، وقالت "إيللي" :

لم أكن أتصور أنك تكره وجود "جريتتا" إلى هذا الحد ... لا أتذكر السبب الذي أثار ذلك الشجار ، وحاولت أن أهدئ "إيللي" واعتذرت بأن أعصابي ثائرة ، وقلت لها في النهاية إنني أحب "جريتتا" ، وإن ما حدث

- طلب مني المستر "روجرز" أن أفحص المسز "روجرز" فحصا عاما .. ولم
أكتشف فيها أمراضا مرضية ... أعتقد أن خروجها في الهواء الطلق مفيد ..
ما الأدوية التي تتناولها ؟
- تأخذ بعض الأقراص عندما تحس بالتعب كما تأخذ أقراصا أخرى
لتساعد على النوم .
ذهبت "جريتتا" مع الطبيب لتطالعها على الأقراص التي تتناولها "إيللي" .
وقالت "إيللي" بأسعة :
- أنا لا أخذ كل هذه الأقراص يادكتور "شو" أخذ أقراص الحساسية
فقط ..
ألقى الطبيب نظرة على الأقراص وقرر أنها غير ضارة ، ثم فحص الأقرص
المنومة وسأل "إيللي" عما إذا كانت تعاني الأرق ، وقالت إنها لم تتناول هذه
الأقرص منذ مجيئها إلى الريف . وأكد لها الطبيب أن صحتها جيدة بصفة
عامة وأن الأقراص خفيفة ، يتناولها الكثيرون ونصحها بترك الأقراص المنومة ،
وقالت "إيللي" إن "جريتتا" توليها عناية أكثر مما ينبغي ، وأن "جريتتا" نفسها
لاتأخذ أي نوع من الأدوية .. كانت علاقات "إيللي" قد توثقت الآن مع جيراننا
.. وكانت "كلوديا هارد كاسل" تتردد على "إيللي" كثيراً وتخرجان معا في
رحلات لركوب الخيل .. لم أكن من هواة الركوب فقد تعاملت طوال حياتي مع
الميكانيكا والسيارات وفكرت في تعلم ركوب الخيل عندما أذهب إلى لندن .. لم
أشأ أن أتعلم هنا حتى لايسخر الناس مني .. أما "إيللي" فقد كانت مغرمة
بالركوب وتشجعها "جريتتا" على ذلك .. ذهبت "إيللي" مع "كلوديا" إلى أحد
المزادات واشترت لنفسها جواداً اسمه "المنتصر" وطلبت منها أن تكون على
حذر عندما تخرج وحدها وضحكت مني قائلة : إنها تركب الخيل منذ كانت في
الثالثة من عمرها ...
كانت "إيللي" تخرج للركوب مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع ، وتنتهز
"جريتتا" هذه الفرصة وتخرج في رحلة بالسيارة إلى "ماركت شادويل"
للمشتريات ، وبينما كنا على مائدة الغداء ذات يوم ، قالت "جريتتا" إنها التقت

كان بسبب ثورة أعصابي وقلقي ، وانتهى الأمر بأن توصلت لـ "جريتتا" كي تبقى
معنا ...
أعتقد أن خادمتنا الجديد وزوجته سمعا الشجار .. لقد تعودت الصراخ
عندما أفقد أعصابي ، ولكنني أعترف أنني بالغت في ثورة الغضب في هذه
المرة .. كانت "جريتتا" شديدة القلق حول صحة "إيللي" ، وأخبرتني أنها ليست
قوية ، وقلت لها :
- ليس ثمة ما يستوجب القلق فقد كانت صحتها جيدة دائما
- كلا .. ليست صحتها على ما يرام .. إنها رقيقة للغاية . عندما جاء
الدكتور "شو" ليفحص ركبة "إيللي" ، قال إن الحالة طيبة ولا تحتاج إلى أكثر
من رباط لبعض الوقت وأنها تستطيع المشي ، وسألته عما إذا كانت صحتها
جيدة وما إذا كانت رقيقة بالفعل ، قال بحدة :
- من الذي قال ذلك ؟ صحتها على ما يرام وأي إنسان معرض لما تعرضت له
"إيللي" .
- لا أقصد ركبتها ... أتساءل عما إذا كانت ضعيفة القلب أو اعترتها شيء
من هذا القبيل ..
- لا تتخيل أشياء لا وجود لها أيها الشاب من الذي أدخل تلك الفكرة في
رأسك ؟ قلت له إن المس "أندرسون" هي التي قالت ذلك . وقال :
- آه ، ما الذي تعرف المس "أندرسون" عن الطب ؟ تأكد أن زوجتك بصحة
جيدة . ويقولون هنا : إنها واسعة الثراء ... يتصور بعض الناس أن كل
الأمريكيين أغنياء
وقلت له : إنها غنية بالفعل ، وقال الدكتور "شو" :
- حسن تذكر أن الأغنياء يدفعون الثمن بطرق مختلفة يعطيهم الأطباء بعض
المساحيق أو الأقراص أو المهدئات التي تسيء إلى صحتهم أكثر مما تفيد ..
لذا تجد صحة القرويات أفضل ...
قلت له : إنها تتناول بالفعل بعض الكبسولات ، وعرض علي الطبيب أن
يفحصها إذا شئت .. ووجه حديثه لـ "جريتتا" قائلاً :

سألته عما يقصده . فقال إنه يعتقد أن شخصاً يدفع لها النقود لكي تبعدها عن المكان .. وقد سبق لواحد من القرويين أن أعطاها بعض النقود لكي تغزع واحداً من الجيران لبيتعد .. كانت تفعل مع نفس الشيء .. تحذره وتهدهه وأحدته عن العين الشريرة ومثل هذه الأمور .. أنت تعرف أن القرويين يصدقون هذه الشرافات .. وقد يدهشك أن تعرف عدد القرى في الريف الإنجليزي التي يوجد فيها مثل هذا اللون من الساحرات .. حذرتنا العجوز ولم تكرر ذلك بقدر علمي .. ولكن المعروف أنها تحب المال .. وأن هذا الطراز يمكن أن يفعل أي شيء في سبيل النقود ..

لم أستطع قبول تلك الفكرة وقلت للسيرجنت إننا غرياء عن المنطقة ولم نملك وقتاً يسمح باكتساب الأعداء ..

عدت إلى البيت قلقاً مهموماً ، وبينما كنت أقترّب من الشرفة سمعت "إيللي" تعزف على الجيتار ، ولحنت شبحاً طويلاً بجوارها ظننته في البداية العجورية . واكتلني اكتشفت أنه "سانتونكس" . سألته من أين جاء . وجذبني من يدي بعيداً عن "إيللي" وسألني لماذا سمحت لها بالمجيء .. ظننت أنه يقصد "إيللي" ولكنه قال : السيدة الأخرى .. ما اسمها ؟ "جريتتا" ..

قلت له إن "إيللي" سقطت والتوت ركبته وإنها كانت في حاجة إلى "جريتتا" . وقال باستياء : إن "جريتتا" كانت تخطط للمجيء وقد نجحت ولن تهرج المكان بعد ذلك . لأنها قضت وقتاً طويلاً مع "إيللي" وتعرف كيف تسوسها ..

كان هذا نفس ما قاله "لينكوت" .. وقد تبين لي بعد ذلك أنه كان على حق ..

سألني "سانتونكس" : - هل تريدنا في هذا المكان يا "مايك"؟

- إنها صديقة قديمة لـ "إيللي" ولا أستطيع أن أطردها ..

- أعتقد أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً .. هل تستطيع ؟

ومعني بنظرة صارمة .. كانت نظرة غريبة .. كان "سانتونكس" رجلاً غريباً لا يستطيع أن تعرف المعنى المستتر وراء كلماته . ثم قال : إنني لا أعرف الطريق التي أسلكها ، وعندما قلت له إنني أعرف طريقي جيداً ، قال :

- هل تعرفه حقاً ؟ إنني أشك في ذلك .. أنا أخشى عليك من "جريتتا" لأنها

بغجورية عجوز اعترضت السيارة التي كانت تدهمها . مما اضطرها إلى التوقف . وهددتها العجوز بقبضة يدها قائلة :- هذه أرض العجور وليس من حقكم البناء عليها أو تربية الخيول فيها .. ارحلوا جميعاً قبل أن أصب عليكم لعنتي وفي هذه الحالة لن تروا خيراً ..

استمعت "إيللي" إليها في قلق ولم تقل شيئاً ، وعندما ذهبنا إلى حجرتنا قالت لي : إنها لاتصدق "جريتتا" ، وقلت إنها ربما كانت تبالغ بعض الشيء ، وسألت "إيللي" عما إذا كانت لم تر العجورية أثناء ركوبها الجواد ، وقالت إنها لمحتها أكثر من مرة واقفة وراء الأشجار ولكنها لم تعترض سبيلها .. ولكن "إيللي" جاءت ذات يوم وهي ترتجف وأخبرتني أن العجورية العجوز استوقفتها وهي تهددها بقبضة يدها وقالت :

- ليست هذه أرضكم .. وإن تكون لكم أبداً .. لقد حذرتكم مرتين قبل ذلك ولن أحذركم مرة أخرى .. لن يطول الوقت الآن .. إنه الموت الذي أراه .. إنه رابض خلف كتفك اليسرى .. إنه يتربص بك .. الرجل اليمنى لحصانك بيضاء وهذا قال سيء .. إنه الموت الذي أراه .. وأرى بيتك يتحول إلى أنقاض !

قلت لها غاضباً : يجب وضع حد لذلك ..

اتجهت رأساً إلى القرية .. إلى كوخ المسزكي وعندما وجدت الكوخ خالياً ذهبت إلى مركز الشرطة .. كنت أعرف "السيرجنت كين" استمع الشرطي لقصتي ثم قال :

- يؤسفني أن تتعرضوا لمثل هذه المتاعب .. إنها سيدة عجوز متعبة أحياناً .. ولكنها لم تسبب لنا أي مشاكل من قبل .. سوف أتحدث معها وأطلب منها الابتعاد عنكم . سكت الشرطي قليلاً ثم قال متردداً :

- هل يوجد شخص هنا يا مستر "روجرز" يحمل في قلبه حقداً عليك أو على زوجتك ؟

- لا .. ولكن لماذا ؟

- جرى كثير من المال بين يدي العجورية العجوز في الفترة الأخيرة لا أحد يعرف مصدر هذا المال ..

أقوى منك .. سمعتك لها بعد أن تقبضت على يدي .. سمعتك له .. قلت متبرماً :

ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي .. قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

ليست كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة .. بل إنك عندما تلمس يدي ..

قلت كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لا تريدها هنا وقد جاءت ..

وإنك الإنسان ليعيش مع الأفراح والأحزان .

وعندما ندرك هذه الحقيقة جيداً ..

خلال رحلة الحياة .. تمر الرحلة بسلام ..

إذني أجتاز الرحلة بسلام لأنني أعرف أين أنا .. أما أنت يا "إيللي" :

في كل ليلة وفي كل صباح

بواد البعض في أحضان السعادة والهناءة .

هذه أنت يا "إيللي" ..

لمعت له أن نعمم بالأمان وسألها بدوره : ألا تشعرين أنت بالأمان ؟ وقالت

"إيللي" :

- لا أحب أن يهددني أو يصب اللعنة علي أحد ..

فهم "سانتونكس" أنها تقصد العجوبة ونصحها بنسيانها والعناية بصحتها

وأمنى لها السعادة ولنفسه الراحة في أيامه الأخيرة . وسألته "جريتتا" عن

أمنيتها بالنسبة لها وقال : بالنسبة لك ؟ ربما النجاح !

سافر "سانتونكس" في الصباح الباكر . وقالت "إيللي" إنه إنسان غريب ..

وأنه يعرف الناس أكثر من معرفتهم لأنفسهم ثم قالت : وهو يكرههم في بعض

الأحيان بسبب ذلك .. وفي أحيان أخرى يشعر نحوهم بالأسف ..

تحدثت قليلاً ثم قالت : ولكنه لا يشعر نحوي بالأسف ..

وسألها بدهشة : ولماذا يشعر نحوك بالأسف ؟

وقالت : أوه - لأنه - ثم صمتت .

في تلك اللحظة ..

في تلك اللحظة ..

في تلك اللحظة ..

في تلك اللحظة ..

في تلك اللحظة ..

في تلك اللحظة ..

في تلك اللحظة ..

في تلك اللحظة ..

في تلك اللحظة ..

الفصل العاشر

بينما كنت أمشي بخطا سريعة بعد ظهر اليوم التالي في أكثر الأماكن إظلاماً من الغابة ، رأيت شبح سيدة طويلة حسبتها في أول الأمر الغجورية ، ولكنني اكتشفت عند اقترابي منها أنها أمي .. قلت لها :- يا إلهي .. لقد أفرزعتني .. هل أتيت لترينا ..؟ لقد أرسلت لك أكثر من دعوة .. ولم أكن قد أرسلت لها في الواقع سوى دعوة واحدة وبلهجة تجعلها ترفض بكل إصرار .. فلم أكن أريد حضورها إلى هنا .. قالت أمي !: إنها جاءت أخيراً لتراني وتطمئن علي وترى البيت الكبير الذي بنيت ، وقلت لها :

- هل ترينه شيئاً كبيراً بالنسبة لأمثالي ؟ وقالت بمرارة : لم أقل ذلك .. ولكنه ليس الشيء الذي ولدت من أجله ..

قلت لها : إن الإنسان لا يصل إلى شيء إذا استمع إلى نصائحها وقالت : إن الطموح الذي يتجاوز المعقول ينقلب إلى مرارة ، وقلت باستياء :

- أرجوك بحق السماء ، ألا تتعبي كالغريان .. تعالي لترى زوجتي العظيمة .. قالت : زوجتك ؟ لقد رأيتها بالفعل .. ألم تخبرك بذلك ؟ ألم تقل لك : إنها جاءت لتراني ؟ عندما رأت دهشتي أخبرتني أنها فوجئت بها تطرق الباب ذات يوم لتقول لها : إنها زوجتي . وإنها جاءت لتعرف أم "مايك" .. وقالت لها أمي إنها تراهن على أن "مايك" لم يكن يريد مجيئها .. لأنها غنية ونحن فقراء ولاشك أنه يشعر بالخجل .. وأضافت أمي :

إنه لا يخجل مني .. إنه يخشاني لأنني أعرف عنه الشيء الكثير .. وقلت لأمي محنقاً :- كان ينبغي أن تخبرني "إيللي" أنها ذهبت لشراك .. لا أرى سبباً لكي تبقى ذلك سرّاً ..

غضبت .. غضبت غضباً شديداً .. لم أكن أتصور أن تخفي "إيللي" عني أسراراً كهذه .. وقالت أمي :- ربما كانت خائفة لما فعلت ؟ ولكنني لا أرى موجباً لخوفها منك يا بني .. طلبت منها أن تأتي لترى البيت .. لا أعرف ما إذا كانت أحب بيتنا .. لا أظن أنها أحبته .. تطلعت إلى الحجرات ورفعت حاجبيها

أم ذهبت إلى الشرفة حيث كانت "جريت" تجلس مع "إيللي" .. كأننا قد وصلنا لتوهما من الخارج وكانت "جريت" ترتدي عباءة قرمزية اللون من الصوف تغطي كتفيها .. تفحصتهما بنظراتها وظلت واقفة برهة في مكانها كالتمثال .. قفزت "إيللي" من مكانها واتجهت نحوها قائلة :

- أوه .. إنها المسز "روجرز" يا "جريت" .. جاءت أمه لترى البيت وترانا .. ليس البيت لطيفاً ؟ هذه صديقتي "جريت" أندرسون .. احتوت يد أمي بين كتفيها ، ونظرت إليها أمي ثم تطلعت إلى "جريت" من وراء كتفها بنظرات صارمة وهي تقول :- أه .. إنني أرى .. وسألت "إيللي" : ماذا ترين ؟

قالت أمي :- كنت أتساءل كيف تبدو الأمور هنا .. تطلعت أمي حولها ثم أرففت تقول :- نعم .. بيت رائع .. ستائر جميلة - والكراسي واللوحات رائعة ..

طلبت "إيللي" من "جريت" أن تعد الشاي ، ونظرت "جريت" إلى أمي وهي خارجة نظرة تكشف عن الخوف .. وجلست أمي وسألتها "إيللي" عما إذا كانت ستبقى معنا بعض الوقت وقالت أمي : إنها ستصرف بعد نصف الساعة لكي أحرق القطار ، وأنها جاءت لجرد الاطمئنان علينا .. وقالت بسرعة .. ربما أرغبها في الانصراف قبل عودة "جريت" :- والآن لاتزعجني يا صغيرتي .. لقد أخبرته بأنك جئت لزيارتي .. وقالت "إيللي" بحزم : أنا أسفة لأنني لم أخبرك يا "مايك" فكرت في أنه من الأفضل أن أخفي عنك ذلك .

وقالت أمي : لقد جاءت بدافع من طيبة قلبها .. إنها فتاة طيبة تلك التي تزوجتها يا "مايك" .. وهي حسناء أيضاً .. رائعة الجمال .. أنا أسفة وقالت "إيللي" بدهشة : أسفة ؟

- أسفة للأشياء التي فكرت فيها .. ولكن هذا حال كل الأمهات .. تداخلهن المشكوك في زوجات أبنائهن .. ولكنني بعد الذي رأيته الآن أقول إنك محظوظ يا "مايك" .. وقلت لأمي باسمياً - أنت تعرفين أن لي نوقاً ممتازاً .. وقالت أمي وهي تتأمل الستائر :

- كنت تتطلع دائماً إلى الأشياء الثمينة .. ثم التفتت نحو "إيللي" قائلة لها :
سوف تساعدني بين الحين والحين على توفير بعض النقود .. وسوف يؤدي ذلك
إلى تحسين سلوكك ..

وقلت : إنني أرفض أن يتحسن سلوكي .. ميزة أن يختار الإنسان لنفسه
زوجة ترى كل ما يفعله زوجها سليماً .. أليس كذلك يا "إيللي" ؟

كان وجه "إيللي" يطفح بالبشر والسعادة ، ضحكت وقالت :

- أنت تتعالى يا "مايك" .. إنه الغرور ..

عادت "جريت" تحمل أقداح الشاي .. وساد التوتر الجو من جديد .. وفشلت
كل جهود "إيللي" في إقناع أمي بالبقاء ، وخرجت "إيللي" معي لنصحب أمي
حتى الباب ، وسألته أمي عن الاسم الذي اخترناه للبيت ، وأخبرتها أننا
أسميناه أرض النجر ، وقالت أمي :- أه .. لأن الفجر يقيمون حولكم هنا ؟
سألته :

- كيف عرفت ذلك ؟

- لقد رأيت واحدة منهن ورمقتني بنظرات غريبة ، قلت لها إن السيدة طيبة
ولكن عقلها مختل بعض الشيء ..

وقالت : لماذا تقول ذلك ؟ هل هي حاقدة عليك ؟

قالت "إيللي" : كل ما في الأمر أنها تتخيل أننا استولينا على أرضها أو على
شيء من هذا القبيل .. وقالت أمي : أعتقد أنها تريد بعض النقود .. هكذا
شأن الفجر .. وقالت "إيللي" : ألا تحبين الفجر ؟

- إنهم لصوم .. لا يعملون بصفة منتظمة ويضعون أيديهم على ما يملكه
الآخرون ..

وقالت "إيللي" في تردد : أوه .. أ .. لم نعد نشعر بالقلق الآن .

سألت أمي عن السيدة التي تعيش معنا ، وأخبرتها "إيللي" أن "جريت" كانت
معها طوال السنوات الثلاثة السابقة على زواجها ، ولولا معاونة "جريت" لها لما
شعرت بطعم السعادة .. وسألته أمي عما إذا كانت في زيارة عابرة لنا ، وقالت
"إيللي" مراوغة :- إنها تعيش معنا الآن لأن ركبتني التوت وكنت في حاجة إلى

من يرماني .. ولكنني الآن بخير ..

- يحتاج المتزوجون حديثاً إلى أن يعيشوا وحدهم في البداية .

ولمّا نتابع أمي بنظراتنا وهي تبتعد ، وقالت "إيللي" إن لأمي شخصية

أدوية .. كنت غاضباً .. كنت شديد الغضب من "إيللي" لأنها زارت أمي دون أن

أخبرني وأكثرت عندما استدارت لتواجهني بابتسامتها الوديمة لم أملك سوى أن

أقول لها : يا لك من إنسانة مخادعة صغيرة ..

وقالت "إيللي" .. حسن ، يجب أن أكون كذلك في بعض الأحيان ..

كنت أمثلما حدث في إحدى مسرحيات "شكسبير" التي شاهدتها .. حيث

أدعت الفتاة أباه ..

قالت "إيللي" ساهمة : على قدر ما أعلم لم أخدع أبي .. ربما كنت فعلت ذلك

فربما بعد .

- لا أظن أنه كان يرضى عن زواجك مني ..

- نعم .. ما كان ليرضى .. كان رجلاً محافظاً .. لهذا أعتقد أنني كنت أفعل

والعالم فعلت "نيدمونة" وأخدع أبي لأهرب معك .

سألته بفضول :

لماذا كنت حريصة يا "إيللي" على مقابلة أمي ؟

- أحسست أنها فعلت من أجلك كل شيء لتوفر لك التعليم والحياة الطيبة ومن

لم يفكر أنه من الضعة نكران الجعيل أن أتجاهلها ولا أسعى لرؤيتها ..

- كان سيصبح خطني ، لاخطاك أنت ..

- نعم .. أنهم أنك لم تكن تريدني أن أراها ..

- هل تعتقدن أنني أشعر بعركب النقص من ناحية أمي ؟

أرس هذا صحيحاً يا "إيللي" أؤكد لك أن الأمر ليس كذلك ..

قالت "إيللي" بعد التفكير : نعم .. أعرف ذلك الآن .. السبب أنك كنت لاتريد

أظهارها كأم .. ولكن اتضح لي أنها ليست من ذلك الطراز أعني أنها كانت تريد

لك أن تزاول أعمالاً معينة ..

- هذا صحيح .. كانت تريد لي وظيفة دائمة .. الاستقرار ..

أدعي ذلك .. وكما توقعت أعادت إلي الشيك ومعه رسالة قصيرة تقول فيها :
للأسف لي بهذه النقود .. لن تتغير أبداً ، قد تأكدت من ذلك الآن .. فلتساعدك
السماح ..
قلت لـ "إيللي" غاضباً وأنا أطلعها على الرسالة :
هل رأيت النوع الذي تنتمي إليه أمي ؟ تزوجت فتاة غنية وأعيش على أموال
زوجتي .. وأمي لا توافق على ذلك ..
وقالت "إيللي" : لا تتزعج يا "مايك" .. هذه هي الطريقة التي يفكر بها بعض
الناس ، ولكنها سوف تتغلب على هذا الشعور ، إنها تحبك حباً شديداً يا
"مايك" .. وقلت لها باستياء : لماذا تفكر إذن في تغييرني ؟ إنني أنا .. أأست
بأنفساً بالغا ؟ وقالت "إيللي" برقة : نعم .. وأنا أحبك ..
أرادت "إيللي" تغيير دفة الحديث وسألتني سؤالاً أقلقني ..
قالت : ما رأيك في الخادم الجديد ؟
قلت : لا بأس به .. ولكن لماذا تسألين ؟
- كنت أتساءل هل هو رجل أمن ؟
قلت بدهشة : رجل أمن ؟ ماذا تقصدين ؟
- مخبر سري .. فكرت في أن العم "أندرو" ربما دبر ذلك ..
- ولماذا يفعل ؟
- أ .. حسن .. ربما خوفاً من الاختطاف ، لعلك تعرف أننا في الولايات
المتحدة نستخدم حراساً ، وخاصة في الريف ..
كانت هذه واحدة أخرى من المساوي التي اكتشفتها بالنسبة للأغنياء الذين
يملكون المال .. وسألتها :
- هل تشترك معه زوجته في هذه المهمة ؟
- أرجح ذلك ، رغم أنها طامية ماهرة .. أعتقد أن العم "أندرو" أو ربما
"ستانفورد لويد" قد دفع مبلغاً من المال للخدم السابقين ، لكي يتركوا العمل
حتى يرسل إلينا هذين الخادمين .
قلت بدهشة : دون علمك ؟

قالت "إيللي" : كانت نصيحة طيبة بحق .. ولكنها لم تكن النصيحة التي تليق
بك يا "مايك" .. لست من الطراز الذي يحب الاستقرار .. أنت تريد أن تمشي
لترى الأشياء وتفعل ما يروقك .. أن تقف على قمة العالم .. وقلت لها : أريد أن
أبقى معك في هذا البيت ..
- ربما لفترة قصيرة .. وأعتقد أنك سوف تتوق إلى العودة إلى هنا دائماً ..
ونفس الشيء بالنسبة لي .. أعتقد أننا سوف نأتي إلى هنا كل عام وسوف
نكون سعداء هنا أكثر من أي مكان آخر .. ولكنك ترغب في السفر إلى شتى
الأماكن .. أنت تحب الأسفار ورؤية الدنيا وشراء الأشياء .. وربما تضع خططاً
جديدة لإقامة حديقة هنا ، ربما نذهب لمشاهدة الحدائق الإيطالية واليابانية ..
مختلف أشكال الحدائق . وقلت لها : أنت تجعلين الحياة مثيرة يا "إيللي" ..
إنني أسف لغضبي ..
- أنا لست خائفة منك يا "مايك" .. أمك لاتحب "جريت" .
- كثير من الناس لا يحبون "جريت" .
- بما فيهم أنت ؟
- وبعد يا "إيللي" .. أنت تردين هذا القول كثيراً وهو غير صحيح .. كنت
أغار منها قليلاً في البداية ولكن العلاقة بيننا الآن طيبة ..
- أعتقد أن المستر "لينكوت" أيضاً لا يحبها .. يعتقد أن لها تأثيراً شديداً
عليّ وهذا أمر طبيعي لأن لديها شخصية متسلطة .. ويحب أن يكون معي
شخص أثق فيه وأعتمد عليه ..
شخص يقف في صفي ..
دخلنا المنزل وكل منا يتأبط ثراع الآخر .. لم تكن "جريت" في المنزل .. قال
الخدم إنها خرجت للنزهة ..
الآن بعد أن عرفت أمي كل شيء عن زواجنا ورات "إيللي" .. بدأت أفعل كل
ما كنت أريده لبعض الوقت .. أرسلت لأمي شيكاً بمبلغ محترم وطلبت منها أن
تنتقل إلى مسكن أفضل وأن تشتري الأثاث الذي تريده .. كان لدي شك في
أنها سوف تقبل الشيك .. لم يكن مالا كسبته بعرق جبينني ولا أستطيع أن

الفصل الحادي عشر

استيقظت من النوم وأنا أشعر بسعادة غامرة .. كان الجو رائعاً .. اليوم هو السابع عشر من سبتمبر أيلول .. كانت لدي خطط كثيرة لهذا اليوم .. كنت على موعد مع الميجور "فيليبوت" لحضور مزاد يقام في بيت ريفي على بعد أربعة وعشرين كيلومتراً ..

اطلعت على كتالوج المزاد واخترت في ذهني قطعتين ..
انتهت "إيللي" أن تخرج كل صباح تقريباً لتركب جوادها مع "كلوديا" أحياناً ووحدها في أحيان أخرى .. سألت "جريت" عن برنامجها هذا اليوم فقالت : إنها سوف تقابل "كلوديا هارد كاسل" في ماركت "شادويل" لشراء بعض البياضات .. وقلت لـ "إيللي" :

- إذا كانت "جريت" ذاهبة اليوم إلى لندن .. فلماذا لا تقابليننا في مطعم "هورج" في "بارتنجتون" .. الطعام هناك جيد .. هكذا قال لي "فيليبوت" واقترح علي أن تلتقي بنا هناك في الساعة الواحدة ..
وافقت "إيللي" وخرجت لتبدأ جولتها .. كانت مولعة بالركوب ، وكانت معتادة على صعود ممر إلى الربوة العالية ثم تطلق العنان لجوادها ليهبط في الطريق الذي يؤدي إلى البيت .. تركت السيارة الصغيرة لـ "إيللي" وركبت السيارة الكروزار .. ووصلت إلى المزاد قبيل الموعد بقليل لأجلس بجوار "فيليبوت" على المقعد الذي حجزه لي ..

أخبرني "فيليبوت" أن عدداً من كبار التجار يحضرون المزاد ، لأن بعض قطع الأثاث المعروضة ثمينة .. وأشار نحو بعض اللوحات لـ "روملي" و"رينولدز" وسألني عما إذا كنت مهتماً بها ، وأخبرته أنني جئت لشراء مكتب نسائي قديم ومقاعد مناسبة له لأقدمهما هدية لـ "إيللي" في عيد ميلادها بعد أسبوع ..
وأني تعمدت حضور المزاد وحدي حتى تكون الهدية مفاجأة لها .. حصلت على القطعتين بثمن مرتفع ، وقال لي "فيليبوت" :

حسن .. أرى أنك استمتعت اليوم ..

- بالتأكيد . لأنهم يعرفون أنني كنت سأعارض بشدة .. على أي حال ربما كنت متوهمة .. قالت بعد ذلك بصوت حالم .

ربما تداخل الإنسان مثل هذه الأحاسيس عندما يكون معتاداً على وجود أناس من هذا الطراز حوله ..

وقلت لها بوحشية : أيتها الفتاة الصغيرة الغنية البائسة ..
لم تغضب "إيللي" وقالت : أعتقد أن هذه الكلمات تصفني وصفاً جيداً ..
وقلت لها : إنني أتعلم منك أشياء كثيرة طول الوقت يا "إيللي" ..

الأمور ، وقال - هل تعتمد زوجتك كثيراً على المس "أندرسون" ؟ وقلت له :
نعم .. خيم الصمت بعض الوقت ، وقلت فجأة :

- هل يعقل أن تكون "إيللي" قد نسيت الموعد ؟

نصحتني الميجور "فيليبوت" بالاتصال بالمنزل تليفونيا ، وبرت علي المسز
كارسون الطامية وأخبرتني أن المسز "روجرز" لم تعد إلى المنزل منذ خروجها
الركوب في الصباح .. أعطيتها رقم تليفون المطعم وطلبت منها الاتصال بي
بمجرد عودة "إيللي" إلى المنزل .. وعدت إلى "فيليبوت" الذي عرف من تعبيرات
وجهي أن شيئاً ما قد حدث وقلت له إن "إيللي" خرجت للركوب منذ الصباح وهي
تعود في العادة بعد نصف الساعة أو الساعة ولكنها لم تعد حتى الآن وقال لي
برقة :

- لا تقلق يا بني قبل أن يستوجب الموقف القلق .. أنت تعلم أن بيتك يقع في
مكان منعزل .. ربما يكون الحصان قد عرج واضطرت زوجتك إلى المشي حتى
البيت .. وقلت بانزعاج : لو أنها فكرت في تغيير خططها لكان عليها الاتصال
بي هنا .. وقال "فيليبوت" :- من الأفضل أن ننصرف الآن لنرى ما
باستطاعتنا أن نفعله ..

عندما وصلنا إلى موقف السيارات لمحت سيارة أخرى تغادر الموقف .. كان
فيها الرجل الذي شاهدته في المطعم وعجزت عن تذكر شخصيته .. وخيل إلي
فجأة أنني أعرف الرجل ..

"ستانفورد لويد" أو رجل يشبهه .. هل جاء لمقابلتنا ؟ كانت معه في السيارة
سيدة تشبه "كلوديا هاردكاسل" ؟ ولكنها قطعاً ليست "كلوديا" لأن "كلوديا"
ذهبت إلى لندن مع "جريت" ..

لاحظت أثناء قيادة السيارة أن "فيليبوت" يتفرس في وجهي وقلت له :

- حسن .. لقد حذرتني من الإفراط في مشاعر السرور هذا الصباح ..

- لا تفكر بعد في وقوع أي مكروه .. ربما تكون قد سقطت عن الجواد والتوت
ركبتها أو وقع لها حادث صغير .. إنها فارسة ماهرة .. ولا أستطيع أن أتخيل
وقوع حادث لها . وقلت بشرود :

سألته عما إذا كان قد اشترى شيئاً من المزاد ، فقال : إن الأسعار تجاوزت
قدرته .. تطلع إلى ساعته وقال : من الأفضل لنا أن ننصرف ، وسألني عن
"إيللي" وقلت إنها ستقابلنا في المطعم ، وسأل عن المس "أندرسون" وقلت له :

- ذهبت "جريت" إلى لندن مع المس "هارديكاسل" على ما أعتقد ..

- أوه .. نعم .. قالت "كلوديا" ذلك بالأمس ..

التفت "فيليبوت" نحوي وقال باسم : - أرى وجهك متضرباً بالحمرة اليوم
من فرط السعادة .. وقلت بابتهاج : ذلك لأنني اشتريت المكتب لـ "إيللي" ..

- حسن .. كن على حذر يا "مايك" .. الإفراط في الشعور بالسعادة يكون
نثير سوء ..

وقلت بدهشة : أهذه من المعتقدات الاسكتلندية ؟
فقال : إن الفرح الشديد يسبق وقوع الكارثة .. حاول أن تخفف من شعورك
بالسعادة .. قلت إنني لا أؤمن بهذه الخرافات ، وقال :

- ألا تؤمن كذلك بنبوءات النجر ؟

قلت إننا لم نسمع شيئاً في الفترة الأخيرة عن الغجرية .. وقال "فيليبوت"
إنها ربما ابتعدت عن المكان .. وصلنا بعد ذلك إلى المطعم فوجدناه مكتظاً
بالرواد ، وكان أغلبهم ممن حضروا المزاد .. ورأيت وجهاً أو وجهين خيل إلي
أنني أعرفهما ، وحاولت أن أتذكر من هما وأين التقيت بهما دون طائل ..
سألتي صاحبة المطعم عما إذا كنت سأجلس على المائدة المحجوزة لنا وقلت
لها :

- سوف تحضر زوجتي بين لحظة وأخرى ..

قلت لـ "فيليبوت" إن صاحبة المطعم قلقة لكثرة الزبائن اليوم ، وإنه من
الأفضل أن نجلس ونتناول الغداء ، وقال "فيليبوت" ضاحكاً :

- هكذا تفعل بنا النساء دائماً .. يسرهن أن يبقى الرجال طويلاً في
انتظارهن .. حسن يا "مايك" .. هيا بنا فانا جائع بالفعل ..

استمر الحديث بيننا ونحن نأكل ، وقلت : إن "إيللي" ربما نسيت الموعد ، فقد
تعودت الاعتماد على "جريت" التي تساعدنا في الالتزام بالمواعيد وترتب لها

قال الطبيب : مات بعض الناس قبل ذلك بسبب صدمة عصبية .. خاصة إذا كانت ضعيفة القلب .. وقلت إنني سمعتهم يقولون في أمريكا إنها كانت مصابة بضعف القلب .. أو بنوع من الضعف على الأقل ..
وقال الطبيب إنه لم يكتشف أي ضعف في القلب عندما فحصها قبل ذلك .. وقال إننا سنعرف الحقيقة في جلسة التحقيق .. نظر إلي الطبيب بعطف وقال :
- عد إلى البيت وأذهب إلى السرير .. أنت الذي تعاني الصدمة ..
تجمع حولنا بعض المارة ليستطلعوا الأمر ، وقال عامل كان يقطع الصخور على جانب المر :

- كان ينبغي أن أرى لو أن حادثاً وقع ..

سأله الطبيب عما إذا كان قد رأى السيدة تسقط عن ظهر الجواد ؟ وقال العامل :

- كلا .. كلا .. رأيتها تركب مصعدة في المر .. سمعت وقع حوافر الحصان وهو ينطلق بسرعة بعد ذلك ، ولم أفكر في أن حادثاً ما قد وقع .. رفعت بصري فوجدت الحصان فوق الرهوة وحده وظننت أن السيدة تركته .. كان الحصان يتجه إلى الاتجاه العكسي ..

ألم تر السيدة راكدة على الأرض ؟

- نعم .. رأيت الحصان لأنه كان على مرمى البصر أمامي ..

وقالت سيدة : ربما تكون العجورية قد أفزعته ..
وقلت للسيدة بانفعال : أي عجورية ؟ متى ؟

وقالت السيدة : منذ أربع ساعات .. حوالي العاشرة إلا الربع .. رأيت العجورية إنها الوحيدة في المنطقة التي تلبس عباءة حمراء .. كانت تسير بين الأشجار وسمعت بعضهم يقول : إن العجورية قالت للأمريكية الشابة كلاماً شديداً .. كانت تهددها وتطلب منها ترك المكان .. وقلت بمرارة : العجورية .. أرض العجر .. ليتني لم أت إلى هذا المكان أبداً ..

- تقع الحوادث في أي وقت .. قادت السيارة بسرعة ووصلنا إلى المكان المحيط بالبيت وتوقفنا لنسأل رجلاً يضرب الأرض بفأسه وقال لنا :
- شاهدت منذ أكثر من ساعتين حصاناً دون راكب .. فكرت في الإمساك به ولكنه جمع وابتعد عني ..

عدنا إلى المنزل ولم نسمع جديداً ، وأرسلنا رجلاً للبحث في منطقة الأشجار عن "إيللي" ، واتصل الميجور "فيليبوت" بمنزله وكلف واحداً من رجاله بالخروج للبحث عن "إيللي" .. لم نعثر على شيء في البداية .. وعندما سلطنا ممراً يؤدي إلى بعض الطرق المتشعبة عثرنا عليها مكومة على الأرض والحصان يقف بجوارها .. كان وجهها الأبيض الصغير يحرق في السماء ، وقلت بفزع وأنا أدير وجهي إلى الناحية الأخرى :

- أ .. كلا .. كلا .. لا أستطيع ثم انحنى "فيليبوت" فوقها ثم وقف في

الحال وقال :

- من الأفضل أن تتصل بالطبيب .. ولكنني أعتقد أنه لافائدة يا "مايك" .. قلت بفزع : هل تعني أنها ماتت ؟

- نعم .. لا داعي لأن أزعم لك غير ذلك .. وقلت باضطراب : يا إلهي ! لا أستطيع أن أصدق !

أخرج من جيبه زجاجة صغيرة وفتح السدادة وطلب مني أن أشرب جرعة كبيرة .. شربت ثم قلت له :- شكراً لك ..

وصل الدكتور في سيارة لاندروفر قديمة واتجه نحو "إيللي" رأساً ليفحصها ، وعاد إلينا قائلاً :- ماتت منذ ثلاث أو أربع ساعات .. كيف وقع الحادث ؟ أخبرته كيف خرجت للركوب بعد الفطور كعادتها ، وقال إنه شاهدها قبل ذلك أثناء الركوب وعرف أنها فارسة ممتازة ؟ وقال إن الحصان ربما فزع وأسقطها عن ظهره ، وقال الميجور "فيليبوت" إن الحصان هادئ ، وسأل "شو" عما إذا كانت "إيللي" مصابة بكسور ، وقال الطبيب إن الكشف الظاهري لم يفصح عن وجود كسور ولكنها ربما أصيبت بنزيف داخلي أو ماتت بسبب صدمة عصبية .. وقلت معترضا : ولكن الإنسان لا يموت بالصدمة ..

الفصل الثاني عشر

من الصعب علي أن أتذكر ما حدث بعد ذلك وما حدث قبل ذلك واضح في ذهني.. كل ما في الأمر أنني لم أكن أعرف من أين أبدأ... ولكن من الآن فصاعداً أحس كأنما سكنين قسمني إلى نصفين.. أما ما مر بي منذ موت "إيللي" فإنه يبدو وكأنه شيء لم أكن معداً له.. لم يحدث شيء لي وإنما تقاطرت الأحداث حولي.. كان الجميع شديدني الرقة معي.. يبدو أن هذا هو الشيء الذي أتذكره جيداً.. كنت أسير كالتائه لا أدري ماذا أفعل.. أتذكر أن حيوية "جريتتا" ظهرت في هذه الفترة.. كانت لديها قوة خارقة لمواجهة مثل هذا الموقف العصيب.. القدرة الفائقة على العناية بأدق التفاصيل التي لم يكن باستطاعتي القيام بها.. أول شيء أذكره - بعد أن نقلوا جثة "إيللي" وعدت إلى البيت.. بيتنا - أن دكتور "شو" عندما جاء ليتحدث معي.. إنه كان هادئاً لطيفاً معي.. اكتفى بشرح الأمور بوضوح ورقة..

الترتيبات.. أذكر استخدامه لهذه الكلمة البغيضة.. الترتيبات التي لا تخطر ببال الإنسان قبل أن تقع الأحداث.. متعهد دفن الموتى والإعداد للجنائز ودخول الخدم الحجرات لإسدال الستائر.. لماذا تسدل الستائر؟ لأن "إيللي" ماتت؟ لهذا أذكر أنني كنت ممتناً للدكتور "شو" الذي تعرض لهذه الأمور برقة واقتدار.. مثل التحقيق الذي لا بد أن يجري في مثل هذه الأحوال أذكر أنه كان يتحدث ببطء شديد لكي أتأكد من متابعتي لما يقول.. لم أكن أعرف شيئاً عن شكل هذا التحقيق.. فلم أذهب في حياتي إلى جلسة تحقيق.. كان قاضي التحقيق رجلاً ضئيل الجسم ثرثاراً.. طلب مني أن أتحدث بالتفصيل عن آخر وقت رأيت فيه "إيللي" على مائدة الإفطار قبل خروجها للركوب كالمعتاد.. والترتيبات التي أعدناها للقاء بعد ذلك على الغداء.. وقلت له إن كل شيء سار بشكل طبيعي وأنها كانت في أتم صحة..

أدلى دكتور "شو" بشهادته.. تحدث بهدوء وقال إنه لم يكتشف جروحاً خطيرة.. مجرد كدمات كذلك التي تحدث في حالة السقوط عن الجواد وأنه

يرجح أنها لم تتحرك من المكان الذي وقعت فيه.. وأضاف أنه يعتقد أن الوفاة حدثت في الحال وأن عدم وجود جروح خطيرة يجعله يرجح أن الوفاة حدثت نتيجة هبوط في القلب بسبب صدمة.. وعلى قدر ما فهمت من المصطلحات الطبية التي استخدمها الطبيب أن "إيللي" ماتت بسهولة نتيجة عدم القدرة على التنفس.. "أسفسكيا" من نوع ما.. كانت أعضاؤها سليمة ومحتويات معدتها طبيعية..

أكدت "جريتتا" التي استدعيت أيضاً لأداء الشهادة أن "إيللي" كانت تعاني منذ ثلاثة أعوام مرضاً في القلب، وأنها سمعت عرضاً من بعض أقاربها يحذرونها من بذل جهد كبير، ولكنها لم تسمع شيئاً محدداً أكثر من ذلك.. وجاء دور العامل الشيخ الذي كان موجوداً وقت وقوع الحادث.. قال إنه رأى السيدة تمر أمامه على مسافة ستة وأربعين متراً ورغم أنه لم يتحدث معها من قبل.. إلا أنه عرفها من حصانها المميز برجله البيضاء، وقال إن الحصان معروف بهدوئه.. قال إن عدد المارة بالمكان قليل ولم ير في ذلك الصباح سوى شخص أو شخصين.. كان أحدهما ماشياً والآخر يركب دراجة، ولكنها كانا على مسافة بعيدة بحيث لم يتعرف على شخصيتهما.. قال إنه رأى قبل وصول السيدة راكبة جوادها المسز "لي" العجوز.. كانت تسير في الممر متجهة نحوه ثم استدارت نحو الغابة..

سأل القاضي لماذا لم تحضر المسز "لي" وعرف أنها استدعيت للشهادة، أو قيل له إنها تركت القرية منذ بضعة أيام ولا أحد يعرف مكانها، ولم تترك عنواناً لأنها تعوبت على الذهاب والعودة دون أن تخطر أحداً بتحركاتها.. وقال شخص أو اثنان إنها في الواقع غادرت القرية قبل يوم وقوع الحادث.. سأل القاضي العامل الشيخ:

- هل أنت واثق أن التي رأيتها هي المسز "لي"؟
قال العامل إنه لا يستطيع أن يجزم بذلك، ولكنها ترتدي عباءة قرمزية مثل تلك التي تلبسها المسز "لي".. وكرر ما قاله لنا من قبل.. رأى السيدة تركب حصانها.. ثم رأى الجواد بعد ذلك يعود إلى الغابة..

لانتقام .. أخبرته أن العجوز كانت تهدد 'إيللي' وتطلب منها الرحيل في كل مرة تراها ، قلت له : لا يمكن أن تتخيل الظروف التي التقينا فيها بالعجوز العجوز .. انفجرت فجأة ضاحكاً في هستيرية .. ولكنني سرعان ما تماكنت أعصابي .. كنت أشعر أنني على حافة انهيار عصبي .. رمقني الميجور بعطف وانتظر حتى تماكنت رياطة جأشي وقلت : تقابلنا هنا .. في أرض الفجر .. كنت أقرأ لوحة إعلان عن مزاد وسرت مصعداً في الطريق بدافع الفضول وعندئذ رأيتها لأول مرة .. كانت واقفة تحت شجرة .. فرغت لرؤيتي .. وربما كانت هي التي أفرغتني .. هكذا بدأت القصة .. هكذا جئنا لنعيش في هذا المكان الملعون ..

وسألني : هل داخلك الإحساس طول الوقت أن سوء الحظ يلزم هذا المكان ؟ وقلت له :

- لا .. لا أدري في الواقع .. ولكنني أعتقد أنها كانت تعلم .. كانت تعيش طول الوقت في رعب .. أعتقد أن شخصاً كان يعتمد إدخال الرعب إلى قلبها .. سألني بحدة ماذا تعني بهذا ؟ من الذي كان يفرعها ؟

- العجوزية وإن لم أكن واثقاً من ذلك .. كانت تترقبها لتخبئها أن سوء الحظ يلزم هذا المكان ولا بد لها من تركه ..

قال الميجور غاضباً : كنت أتعنى لو أنكم أخبرتموني بذلك من قبل .. كنت حدثت 'إستر' العجوز وطلبت منها ألا تفعل ذلك .

وسألني : لماذا كانت تفعل ذلك ؟ وقال : تحب أن تظهر للناس أهميتها .. وهي تحب إما أن تحذر الناس أو

تقرأ لهم الطالع وتتنبأ لهم بحياة سعيدة .. إنها تدعي أنها تعرف الغيب . وقلت له ببطء : فلنفترض أن إنساناً ما كان يدفع لها بعض النقود .. سمعت

أنها تحب المال .. - نعم .. إنها مولعة بالمال .. لو أن أحداً دفع لها - ولكن .. من الذي أدخل

هذه الفكرة في رأسك ؟ قلت له : السيرجنت كين ..

استدعاني القاضي بعد ذلك ووجه إلى بضعة أسئلة :

- حول المسز 'لي' .. سألني عما إذا كنت وزوجتي نعرف العجوز بمجرد رؤيتها ورددت بالإيجاب .. ثم سألني عما إذا كنت قد تبادلنا الحديث معها ، وقلت إنها تحدثت معنا بضع مرات .. وسأل عما إذا كانت هدت زوجتي .

ترددت برهة قبل أن أقول ببطء : - سألتها عن زوجها الميجور .. نعم .. ولكنني لم أتصور أبداً - لم أتخيل أنها تحمل أية ضغينة لزوجتي :

وسأل القاضي : هل طلبت منها أو طلبت زوجتك منها الرحيل أو عاملتماها بخشونة عندما هدتكما ؟

وقلت : كان العدوان من جانبها هي .. هل خطر ببالك أنها قد تكون مختلة العقل ؟

- نعم كانت تعتقد أن الأرض التي أقمنا عليها بيتنا ملك لها أو لقبيلتها .. وأعتقد أن تلك الفكرة كانت مسيطرة عليها .

سألني عما إذا كانت العجوز قد اعتدت على زوجتي بدنياً وقلت إنها لم تفعل أكثر من التحذير مثلما يفعل الفجر .. وعاد القاضي يسألني : ألم تذكر كلمة

الموت ؟ وقلت : بلى .. أعتقد أنها ذكرت الكلمة ولكننا لم نأخذ الأمر على محمل الجد .. ثم استدركت وقلت : أنا لم أكثرث بذلك ..

وسأل القاضي : وبالنسبة لزوجتك ؟ كانت زوجتي تشعر بالفزع ولكنني أعتقد أن السيدة العجوز لم تكن مسؤولة

عما تقوله أو تفعله .. أصدر القاضي حكمه بالتأجيل لمدة أسبوعين .. وكانت الأدلة كلها تشير إلى

أن الوفاة حدثت قضاء وقدر ، ولكن لا توجد أدلة تشير إلى كيفية وقوع الحادث .. وقال القاضي إنه يؤجل استكمال التحقيق حتى تحضر المسز 'لي' وتدلي

بشهادتها .. ذهبت في اليوم التالي للميجور 'فيليبوت' وقلت له بصراحة إنني في حاجة إلى استشارته .. سألته عما إذا كانت المسز 'لي' تستطيع بوسيلة

شريرة أن تتسبب في وقوع الحادث وقال إنه لا يعتقد ذلك ، فلا بد من وجود دافع قوي لدى العجوز للانتقام من 'إيللي' ، وهو لا يرى ثمة دافعا

وإنني عندما سمعت تحطم الزجاج عثرت على الحجر .. وإن حجراً ألقى من النافذة قبل ذلك بعد وصولنا إلى المكان ولا أعرف ما إذا كان الفاعل هو نفس الشخص .. لبس "فيليبوت" نظارته ليقراً الرسالة التي كانت تقول : إن التي قتلت زوجتك امرأة .

قال الميجور بدهشة : شيء غريب .. هل كانت الرسالة الأولى مكتوبة على الآلة الكاتبة ؟

قلت : لا أذكر .. كانت مجرد تحذير لنترك المكان ..

- هل تعتقد أن الذي قذف الحجر شخص يعرف شيئاً ؟

وقلت له : ربما كان مجرد شخص عابث .. هذا يحدث كثيراً في الريف ..

أعاد إلي الورقة وهو يقول :

- أعتقد أنك على حق .. يجب أن تسلمها للسيرجنت "كين" .. إنه يعرف خيراً مني هذه الرسائل المجهولة ..

وجدت السيرجنت "كين" في مركز الشرطة وأبدى اهتماماً شديداً ، وسألته عن رأيه فقال :

- ربما كان القصد إصاق التهمة بشخص معين ..

- هل تعني بذلك المسز "لي" ؟

- لا .. ربما شاهد أحدهم سيدة بالقرب من مكان الحادث .. ولكنني أعتقد أن المقصود سيدة أخرى غير المسز "لي" ..

وسألته : وماذا بشأن العجورية ؟ ألم تعثروا عليها بعد ؟

هز رأسه ببطء وقال : إنهم يعرفون المكان الذي تذهب إليه حيث يوجد بعض أفراد من قبيلتها ، ولكنهم لم يعثروا عليها هناك .. وقد قيل له إن أحداً لم يرها في ذلك المكان .. أحسست بشيء غريب يتوارى وراء كلماته ، وقلت له : لست أفهم ماتعنيه .. وقال الشرطي : لقد كانت تهدد زوجتك وتخيفها .. لعلها سمعت بما حدث وتذكر أن الشرطة سوف تبحث عنها .. لهذا ذهبت إلى مكان بعيد ..

وقلت : ولكنكم سوف تعثرون عليها ؟

- بالتأكيد .. ولكن ذلك قد يستغرق بعض الوقت أنت تعرف أنني كنت أتسائل ليل ليل ليس له آخر

هز الميجور رأسه وقال بارتياح : هكذا .. ولكنني لا أصدق أنها كانت تتعمد إفزازها إلى الحد الذي ينتهي بوقوع حادث ..

وقلت : ربما فعلت شيئاً أفرغ الجواد .. لقد أحسست أنها تضمم بالفعل الحقد لسبب ما على "إيللي" .. هل كان هذا المكان ملطاً لها ؟

- لا .. ربما طلبت السلطات المختصة من الفجر الرحيل عن هذا المكان أكثر من مرة .. ولكنني أشك في أن ذلك ترك في نفوسهم مثل هذه المرارة ..

قلت إن العجورية ربما كانت غاضبة لسبب لا نعرفه ، وسألني : أي سبب ؟ فكرت برهة ثم قلت :

فلنفترض أن شخصاً كان يدفع لها المال لتفعل ما كانت تفعله .. ماذا كان هدف هذا الشخص ؟

فلنفترض أنه كان يريد منا أن نترك المكان .. لقد ركزوا على "إيللي" وحدها لأنهم يعرفون أنني لن أخاف ، على العكس من "إيللي" .. إذا كان الأمر كذلك

فلا بد أن الهدف كان عرض الأرض للبيع مرة أخرى .. ومعنى هذا أن شخصاً يريد أرضاً ..

قال "فيليبوت" : افتراض منطقي .. ولكنني لا أرى دافعاً لذلك ..

قلت : ربما كانت الأرض غنية بثروة معدنية لا يعرف أحد شيئاً عنها .. أو يوجد كنز مدفون فيها .. مال سرقاته عصابة من أحد البنوك وأخفته في باطن

الأرض .. كان "فيليبوت" يهز رأسه ولكن ليس بالعنف السابق وقلت : الاقتراح الثاني أن نتعرف على الشخص الذي يدفع المال للمسز "لي" .. ربما كان عدواً

غير معروف "إيللي" .. شكرت الميجور لاستماعه لي ، وقال إنه كان يتمنى أن يعاونني .. توجهت نحو الباب وتحسست جيبي لأتحسس الشيء الذي أضعه في جيبي ، واستدرت

فجأة وعدت إلى الحجرة وقلت للميجور :

- هناك شيء أحب أن أطلعك عليك .. كنت أنوي عرضه على السيرجنت "كين" لعله يستخلص منه شيئاً .. أخرجت من جيبي قطعة حجر ملفوفة بورقة عليها

كلمة تحذير ، وقلت له إن شخصاً ألقى هذا الحجر من النافذة هذا الصباح ..

فتح نرج مكتبه وأخرج منه ولاعة ذهبية .. كانت ولاعة نسائية وعليها حرف منقوش بقطع الماس .. الحرف "ك" .. وسألني عما إذا كانت الولاة خاصة بزوجتي .. وقلت إنها لاتخص زوجتي كما أنها لا تخص المس "أندرسون" لأن اسمها "جريت" .. وقال السيرجنت إنهم عشروا عليها هناك ومن الواضح أنها ولاعة ثمينة كررت : الحرف "ك" .. لا أعرف أحداً يبدأ اسمه بالحرف "ك" سوى "كورا" زوجة أب "إيللي" .. ولكنني لا أتخيل كيف تصعد "كورا" إلى ذلك المكان وهي لم تبقي معنا سوى فترة قصيرة منذ شهر .. ولا أنكر أنني رأيتها تستخدم ولاعة .. ربما لم ألاحظ ولكن المس "أندرسون" ربما كانت تعرف .. ناولني الولاة لأعرضها على "جريت" وقلت له :

- سأقفل .. ولكن إذا كانت خاصة بـ "كورا" فالأمر يبدو غريباً لأننا لم نرها عندما كنا في المبنى مؤخراً .. هل كانت ملقاة على الأرض ؟

- نعم .. بالقرب من الأريكة .. بالتأكيد يستطيع أي إنسان أن يستخدم ذلك المبنى .. ربما عاشقان وجدا المكان مناسباً للقاء في أي وقت .. أعني السكان المحليين .. ولكن ليس من المحتمل أن يقتني أحدهم ولاعة ثمينة كهذه ..

قلت : هناك "كلوديا هاركاسل" .. ولكن ماذا تفعل "كلوديا" في هذا المكان ؟
- ألم تكن صديقة لزوجتك ؟

- نعم .. كانت أفضل صديقات "إيللي" هنا وهي تعلم أننا لا نمانع في استخدامها المكان في أي وقت نشاء .. وقال السيرجنت "كين" : أه .. نظرت إليه بخشونة ثم قلت :

هل تفكر في أن "كلوديا" كانت عدوة لـ "إيللي" ؟

- أوافقك على أنه لا يوجد ميرر لمثل هذه العداوة .. ولكنك لاتستطيع أن تجزم بشيء عن النساء ..

اندفعت قائلاً : أعتقد .

ثم توقفت عن إكمال الجملة لأن الفكرة التي خطرت ببالي كانت غريبة ..

واستحشي السيرجنت "كين" لأتكلم ، وقلت :

- أعتقد أن "كلوديا هاركاسل" كانت متزوجة من رجل أمريكي اسمه

عما إذا كان شخص يدفع لها لتفعل ما فعلته ..

- هذا سبب يدفعها إلى الابتعاد بقدر المستطاع ..

- لاتنس أن هذا الشخص أيضاً يفكر في إبعادها .. قلت ببطء : تقصد الشخص الذي كان يعطيها المال ..

مارأيك لو أنها كانت سيدة ؟

قال السيرجنت : ولنفترض كذلك أن شخصاً أخر لديه فكرة عن الموضوع .. لهذا أرسلوا الخطابات المجهولة حتى تخاف السيدة أيضاً .. وعلى أي حال .. حتى لو كانت هي التي طلبت من الفجرية إدخال الرعب في قلب زوجتك فما كانت تستهدف موتها في النهاية ..

قلت : كلا .. لم يكن الموت هو الهدف .. كان مجرد إفزاعنا .. حتى نترك المكان ..

- والآن .. من الذين سيخيفونه ؟ السيدة التي تسببت في الحادث وهي مسز "لي" فلنفترض أنها لم تكن الفاعلة .. سوف تعترف على الأقل بأنها كانت تأخذ نقوداً لكي تفعل ذلك وسوف تذكر الاسم .. اسم من كان يعطيها النقود وهناك إنسان لا يجب أن يحدث ذلك .. أليس كذلك يا "مستر" "وجرز" ؟

- تقصد السيدة المجهولة التي لانعرف عنها شيئاً ؟

- رجل أو سيدة .. هذا الشخص لا بد وأنه يسعى إلى التخلص منها بسرعة .. أليس كذلك ؟

سألته عما إذا كان يقصد أن الفجرية قد تكون ميتة الآن ، وقال إن هذا احتمال قائم .. ثم غير دفة الحديث وسألني عن المبنى الذي يشبه المعبد فوق الربوة .. وأخبرته أنني أصلحت المكان وزودته مع زوجتي ببعض الأثاث الخفيف لأننا كنا نذهب إليه أحياناً لقضاء بعض الوقت .. وقال السيرجنت "كين" إنهم ذهبوا إلى المبنى ووجدوا الباب مفتوحاً ، وقلت له إننا لم نكن نقفل الباب لأننا لا نحتوي على أشياء ذات قيمة .. وقال السيرجنت :

- فكرنا في أن المسز "لي" ربما كانت تستخدمه ولكننا لم نعثر لها على أثر .. ولكننا عثرنا على هذا وكان في نيتي أن أطلعك عليه ..

"لويد". واسم الوصي الرئيسي على زوجتي في أمريكا اسمه "ستانفورد لويد". ولكن يوجد كثيرون ولاشك يحملون اسم "لويد" .. ولكن ما نخل كل هذا بموضوعنا ؟

- لا يبدو من المحتمل أن - ولكن -

توقف السيرجنت عن الاسترسال في الحديث ، وقلت له :

من الغريب أنه خيل إلي أنني رأيت "ستانفورد لويد" هنا في يوم وقوع الحادث .. كان يتناول الغداء في مطعم "جورج" في "بارتنجتون".

- ألم يأت للبيت لزيارتك ؟

هزرت رأسي علامة النفي وقلت إنه كان مع سيدة تشبه مس "هارديكاسل" وأنني ربما كنت مخطئاً في تصوري وأخبرته أن أخاها هو الذي شيد بيتنا .

- هل المس "هارديكاسل" مهتمة بالبيت ؟

- لا .. لا أعتقد أنها تحب الطراز المعماري الذي يصممه أخوها ..

وقفت لأنصرف وأنا أقول :

- حسن .. لن أخذ من وقتك أكثر من هذا .. حاول العثور على العجربة .

- لن نتوقف عن البحث عنها .. وقاضي التحقيق يريد ذلك أيضا .

غادرت مركز الشرطة .. ومن الغريب أن يلتقي الإنسان بنفس الشخص الذي يفكر فيه .. كانت "كلوديا هارديكاسل" خارجة من مكتب البريد وأنا أمر أمامه .. توقف كلانا وقالت إنها تشعر بالارتباك وهي تلتقي بزوجة فقد زوجته مؤخراً .. وقلت لها :

- لقد كنت لطيفة للغاية مع زوجتي .. ولقد كنت شاكراً لك هذا الفضل .

قالت إن لديها سؤالاً تريد أن توجهه لي قبل سفري إلى أمريكا حيث إنها سمعت أنني مسافر في القريب العاجل .

وقالت : إذا كنت تفكر في بيع البيت أرجو أن تعتبرني أول من يقدم عرضة لترفضه ..

وقلت بدهشة : أنت ترغيبين في شراء البيت ؟

ولكنني كنت أظنك لاتحبين هذا الطراز المعماري ..

- أخبرني "رودلف" أخي أنه أحسن بيت أقامه .. أتوقع أن تطلب فيه ثمناً كبيراً .. أخذت أفكر في دهشة لماذا ترغب في شراء البيت .. وما الصلة الحقيقية التي تربطها بأخيها "رودلف" .. أهي مغرمة به حقاً ؟ كنت أظنها في بعض الأحيان تكرهه .. هزرت رأسي ببطء وقلت لها : إنها تتخيل أنني أريد التخلص من البيت بسبب موت "إيللي" .. ولكنني لست عازماً على بيع المنزل بحال من الأحوال . لأنه المكان الذي عشت فيه مع "إيللي" في سعادة .. واستجمعت أطراف شجاعتي وقلت :

- ربما لم يكن الأمر يعنك .. ولكنك تزوجت قبل ذلك .. هل كان اسم زوجك "ستانفورد لويد" ؟

حدقت في وجهي برهة دون أن تجيب ، ثم قالت :

- نعم .. وابتعدت عني مسرعة ..

الفصل الثالث عشر

الارتباك .. هذا كل ما أتذكره بعد عودتي .. حاصرتني أسئلة رجال الصحافة وانهالت علي عشرات الخطابات والبرقيات .. وتولت "جريت" هذا الجانب بكفاءة واقتدار .. واقتنعت بالسبب الذي جعل "إيللي" تعتمد عليها اعتمادا كليا ..

وكان أول أمر مفزع هو اكتشافني أن جميع أفراد أسرة "إيللي" موجودون في إنجلترا . كانت "كورا" يوم وفاة "إيللي" موجودة في مكان لايبعد عنا بأكثر من ثمانين كيلو مترا .. كانت تبحث عن منزل تقيم فيه أثناء وجودها في إنجلترا .. أما "ستانفورد لويد" فقد وصل بالطائرة لحضور اجتماع عمل في لندن .. وعرفت الأسرة خبر وفاة "إيللي" من الصحف المحلية لا من البرقيات التي أرسلناها لهم . وثار جدل شديد حول المكان الذي تدفن فيه "إيللي" .. كنت أرى دفنها في إنجلترا حيث عشنا معا ، ولكن الأسرة اعترضت بشدة وتمسكوا بدفنها بجوار أفراد الأسرة في الولايات المتحدة ..

جائني "أندرو لينكوت" ليتحدث معي في هذا الموضوع وكان هادئا ومنطقياً في مناقشته .. سالني عما إذا كانت "إيللي" قد حددت المكان الذي تحب أن تدفن فيه ؟ وقلت له في ثورة إن الإنسان في سن الواحدة والعشرين لا يفكر في الموت .. وقال "لينكوت" :

- من الطبيعي أن تدفن "إيللي" حيث يرقد أسلافها .. كما أنك سوف تكون مضطرا إلى الذهاب بدورك إلى أمريكا .. أنت تعلم أن هناك مصالِح كثيرة ينبغي لك أن تهتم بها .

وسالته : أي مصالِح ؟ وما شأنني بالأعمال ؟
- أمامك أعمال كثيرة لابد من إدارتها .. ألا تدرك أنك المستفيد الرئيسي في ظل الوصية ؟

- هل تعني أنني المستفيد الأول ؟

- لا أعني المستفيد وفقا للوصية .

قلت إنني لا أعرف أنها تركت وصية ؟ وقال :

- كانت "إيللي" شابة عملية .. لقد عاشت في وسط الأعمال ومن ثم كتبت وصيتها بمجرد بلوغها سن الرشد وزواجها منك .. ذهبت إلى واحد من كبار المحامين في لندن وكلفته بكتابة وصية وأمrote بإرسال نسخة منها إلي .. لهذا أنصحك عند ذهابك إلى الولايات المتحدة أن تعهد بأعمالك إلى واحد من المحامين المشهورين بالسمعة الطيبة .. وسالته : لماذا ؟ وقال إنه في حالة وجود مثل هذه الثروة الضخمة من الأموال والعقارات والأعمال في مختلف الفروع الصناعية فلا بد من وجود مستشار فني بجوارني ..

قلت له إنني لست خبيرا في مثل هذه الشؤون وإنني أفضل أن أعهد إليك بهذه المهمة ؟ وقال : تستطيع أن تفعل ذلك .. إنني أمثل بالفعل بعض أفراد الأسرة .. وإذا وضعت مصالحك بين يدي ، فإنك بذلك تكون قد عهدت بالأمر إلى محام قدير ..

وقلت له : شكرا لك . أنت لطيف للغاية ..

سكت "لينكوت" قليلا وهو يتفرد في وجهي ثم قال :

- أنصحك بأن تكون شديد الحذر بالنسبة لأي أوراق توقع عليها .. اقرأ أي شيء يعرض عليك بدقة قبل التوقيع .

سالته عما إذا كانت قراعتي لأي مستند يعرض علي سوف تقيد في شيء ؟ وقال :

- إذا وجدت شيئا غير واضح تماما فمن الأفضل أن تستعين بمستشار قانوني ..

سالته بقلق : هل أفهم من هذا أنك تحذرنني من شخص أو إنسان بعينه ؟

- لا أستطيع أن أجيبك عن هذا السؤال .. كل ما أستطيع قوله .. عندما يتعلق الأمر بمبلغ ضخم من المال فلا تثق في مخلوق أبدا ..

هكذا كان يحذرنني من شخص ولكنه لم يكن يريد التصريح بالاسم . أهني "كورا" أم لعله يشك في "ستانفورد لويد" ؟ الذي تولى إدارة الأعمال لفترة طويلة .. أم هو العم "فرانك" الذي يحتمل أن يتصل بي ومعهم مجموعة من

الوثائق .. رأيت نفسي فجأة .. إنسانا فقيرا بريئا يسبح في بركة تحيط به مجموعة من التماسيح المفترسة وكلها تضحك له ضحكة مزيفة .. وقال المستر "لينكوت" :

- العالم مكان فيه شر كثير ..

وسألته فجأة : هل يستفيد أحد من موت "إيللي" ؟

نظر إلى بحدة وقال : هذا سؤال شديد الغرابة .. لماذا تسأل هذا السؤال ؟ قلت له إنه مجرد سؤال خطر ببالي وقال : أنت المستفيد .. قلت له إنني أعرف ولكنني أسأل عما إذا كان هناك شخص آخر يستفيد ؟ سكت "لينكوت" فترة طويلة ثم قال :

- إذا كنت تقصد أن "فينيلا" خصت بعض الأشخاص ببعض الهبات فأني أقول لك : إنها أوصت بمبالغ زهيدة لبعض الخدم .. كما أوصت للمس "أندرسون" ولكنه مبلغ يسير لأنها سبق أن خصصت لها دخلا مدى الحياة .. لقد كنت زوجها وليس لها أقارب من الدرجة الأولى ، ولكنني أعتقد أن سؤالك كان يعني شيئا آخر .

قلت له إنه مجرد سؤال خطر على بالي ، ولكن كلامه أثار شكوكي خاصة وأنني لا أفهم في المسائل المالية .. وقال المستر "لينكوت" :

- إذا لم تكن حسابات "فينيلا" سليمة .. فمن المحتمل أن تكون وفاتها المبكرة لصالح شخص ما .. لن أنكر أسماء .. سوف يكون من السهل على هذا الشخص أن يتعامل مع إنسان متواضع مثلك ..

أقيمت جنازة متواضعة في الكنيسة الصغيرة .. أحسست بالكراهية نحو كل هؤلاء الأشخاص الذين اصطفوا خارج الكنيسة وهم يحملون في وجهي .. قادتني "جريت" من يدي وأنا أسير كالمذهول .. ولم أدرك قبل هذه اللحظة كم هي قوية ويمكن الاعتماد عليها .. قامت بكل الترتيبات .. طلبت الأزهار ورتبت كل شيء .. عرفت الآن بدرجة أفضل لماذا كانت "إيللي" تعتمد عليها اعتمادا كبيرا .. لا يوجد في الدنيا كثيرات من أمثال "جريت" ..

كان معظم الموجودين في الكنيسة من جيراننا .. وعندما عدت إلى البيت

أخبرني "كارسون" أن سيدي ينتظرنني في غرفة الجلوس ؟ وقلت له إنني لأستطيع استقبال أحد اليوم ، وقال إن السيد يقول إنه قريب .. تذكرت فجأة الرجل الذي رأيت في الكنيسة .. قدم لي "كارسون" بطاقة تحمل اسم المستر "ويليام ر. باردو" هزرت رأسي وسلمت البطاقة "جريت" وسألتها عما إذا كانت تعرف صاحب البطاقة وقالت : بالتأكيد .. إنه العم "روين" .. ابن عم "إيللي" الذي حدثتك عنه .. تذكرت لماذا بدا الوجه مأنوا لي .. كانت صورته الفوتوغرافية بين مجموعة الصور التي تضعها "إيللي" في غرفة الجلوس لأقاربها .. قلت للخادم إنني سأقابله .. ذهبت إلى غرفة الجلوس ووقف المستر "باردو" ليستقبلني وقال :

- "مايكل روجرز" ؟ ربما لم تكن تعرف اسمي ولكن زوجتك ابنة عمي .. كانت تدعوني دائما بالعم "روين" .. هذه أول مرة أراك منذ زواجكما .. وقلت له : إنني أعرفك بالتأكيد ..

لا أعرف كيف أصف "روين باردو" .. كان رجلا ضخما عريض الوجه له نظرات شاردة ولكنك سرعان ما تشعر نحوه بالألفة .. وقال :

كان موت "إيللي" صدمة عنيفة لي ..

وقلت له : فلننس ذلك .. لا أحب أن أتحدث في هذا الموضوع .. قلت له عندما دخلت "جريت" الحجر : هل تعرف المس "أندرسون" ؟ وقال : بالتأكيد .. كيف حالك يا "جريت" ..

وقالت له "جريت" : لا بأس ..

قلت له : لقد رأيتك في ذلك اليوم ..

وقال : - حقا ؟ أين ؟

- في مزاد في مكان يسمى "بارينجتون مانور" ..

وقال : تذكرت الآن .. نعم .. أتذكر وجهك الآن .. كنت مع رجل في حوالي الستين من عمره له شارب بني اللون ..

وقلت : نعم .. ميچور "فيليبوت" . وقال : كنتما تبدوان في حالة نفسية طيبة ..

وقلت : نعم .. كنا في أفضل حال ..

- بالتأكيد .. لم تكن قد علمت بعد بما حدث .. ألم يكن ذلك في يوم وقوع الحادث ؟

- نعم .. كنا نتوقع حضور "إيللي" لتشاركنا الطعام ..
- مأساة .. فاجعة حقا .. وقلت له : لم تكن لدي فكرة أنك موجود في إنجلترا .. هل كانت "إيللي" تعلم ؟

قال : لا .. لم أكتب لها .. في الواقع لم أكن أعرف الوقت الذي سأقضيه هنا .. ولكن مهمتي انتهت في وقت مبكر عما كنت أقدره .. وفكرت في المجيء بعد انتهاء المزداد .. سألته : هل جئت من أمريكا في مهمة عمل ؟

- نعم .. إلى حد ما .. كانت "كورا" تريد استثمارتي بشأن البيت الذي تريد شراؤه هنا .. أخبرني في تلك اللحظة عن المكان الذي كانت تقيم فيه "كورا" على مقربة من بيتنا ، سألته : في أي فندق ؟ وقال إنها لم تنزل في فندق وإنما كانت تنزل مع صديقة لها تدعى "هارد كاسل" .. سألته بدهشة : "كلوديا هارد كاسل" ؟ أجاب بالإيجاب وقال إن "كورا" كانت تعرفها جيدا عندما كانت في الولايات المتحدة . سألت "جريتتا" عما إذا كانت تعرف شيئا عن الموضوع وقالت إنها لم تسمعها تتحدث عن ذلك . ولعل هذا هو سبب عدم مجيئها في ذلك اليوم .. وقالت إنها اتصلت بالبيت بعد انصرافها وقالت إن زائرة أمريكية وصلت فجأة ومن ثم لاتستطيع الخروج .. وقلت : إذن فقد كانت الزائرة هي "كورا" ؟

وقال "روين باردوا" : هذا واضح .. سمعت أن جلسة التحقيق تأجلت .. شرب جرعة من قدح الشاي ثم نهض قائلاً :

- لن أزعجكم أكثر من هذا .. إذا احتجتم إلي في شيء يمكن الاتصال بي في فندق "ماجستيك" في ماركت "شاندويل" ، شكرته .. وبعد خروجه قالت "جريتتا" :

- ماذا يريد ؟ ولماذا جاء ؟ لماذا يعودون جميعاً من حيث أتوا ؟
وقلت : إنني دهش .. هل كان "ستانفورد لويد" الذي رأيته في مطعم "جورج" ؟

- قلت : إنه كان مع سيدة تشبه "كلوديا" .. ربما جاء ليقابلها وجاء "روين" ليقابل "كورا" ..

وقلت : إنني لا أحب ذلك .. وجودهم جميعاً في ذلك اليوم ..
قالت "جريتتا" إن مصادفات كهذه تحدث .. وكانت كعادتها مبتهجة وتتحدث بطريقة منطقية ..

أخبرني في تلك اللحظة عن المكان الذي كانت تقيم فيه "كورا" على مقربة من بيتنا ، سألته : في أي فندق ؟ وقال إنها لم تنزل في فندق وإنما كانت تنزل مع صديقة لها تدعى "هارد كاسل" .. سألته بدهشة : "كلوديا هارد كاسل" ؟

أجاب بالإيجاب وقال إن "كورا" كانت تعرفها جيدا عندما كانت في الولايات المتحدة . سألت "جريتتا" عما إذا كانت تعرف شيئا عن الموضوع وقالت إنها لم تسمعها تتحدث عن ذلك . ولعل هذا هو سبب عدم مجيئها في ذلك اليوم .. وقالت إنها اتصلت بالبيت بعد انصرافها وقالت إن زائرة أمريكية وصلت فجأة ومن ثم لاتستطيع الخروج .. وقلت : إذن فقد كانت الزائرة هي "كورا" ؟

وقال "روين باردوا" : هذا واضح .. سمعت أن جلسة التحقيق تأجلت .. شرب جرعة من قدح الشاي ثم نهض قائلاً :

- لن أزعجكم أكثر من هذا .. إذا احتجتم إلي في شيء يمكن الاتصال بي في فندق "ماجستيك" في ماركت "شاندويل" ، شكرته .. وبعد خروجه قالت "جريتتا" :

- ماذا يريد ؟ ولماذا جاء ؟ لماذا يعودون جميعاً من حيث أتوا ؟
وقلت : إنني دهش .. هل كان "ستانفورد لويد" الذي رأيته في مطعم "جورج" ؟

الفصل الرابع عشر

لم يعد لدي ما أفعله في أرض الفجر .. تركت البيت تحت رعاية "جريت" وأبحرت إلى نيويورك لأشارك في المهمة التي كنت أعرف مقدماً أنها ستكون فضيحة .. حذرتني "جريت" من أنني سوف أجد نفسي كالوحش الذي يطارده الصيادون في الغابة .. كانت "جريت" على حق .. وجدت نفسي في غابة بالفعل .. أحسست كأن البنادق مصوية إلي من كل اتجاه .. ربما كنت واهماً .. ولكنني أذكر نهابي إلى المحامي الذي عينه لي المستر "بنكوت" .. كنت قد تلقيت نصيحة بالتخلص من بعض الأسهم الخاصة بالمناجم ، وسألني المحامي عن نصحتي بذلك وقلت إنه "ستانفورد لويد" وقال الرجل :

- حسن .. يجب أن ندرس الموضوع .. لا بد أن رجلاً مثل المستر "لويد" يعرف ..

ثم قال لي بعد ذلك : لا داعي للتسرع في البيع .. تمسك بهذه الأسهم .. داخلني عندئذ إحساس بأنني كنت على حق في شكوكي .. كان الجميع يتربصون بي .. كانوا كلهم يعرفون أنني إنسان ساذج في الأمور المالية .. كانت الجنازة فخمة .. تكسدت باقات الورد في المدفن .. وكان المدفن نفسه أقرب إلى حديقة غناء .. وكان القبر من الرخام .. ربما كانت "إيللي" تكره ذلك ولكنني أعتقد أن أسرتها كان يحق لها أن تعني بمثاها الأخير .. وتلقيت بعد أربعة أيام من وصولي إلى نيويورك أخباراً من "كنجستون بيشوب" .. تم العثور على جثة المسز "لي" في الطرف الأقصى من الحجر المهجور على جانب التل .. حدثت الوفاة منذ بضعة أيام .. وقعت قبل ذلك بضعة حوادث في نفس المكان وكان المجلس المحلي قد أوصى بإقامة سور حول المكان ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .. صدر حكم بأن الحادث قضاء وقدر .. وتجددت التوصية بإقامة سور .. وتم العثور في كوخ المسز "لي" على مبلغ ثلاثمائة جنيه .. وأرسل إلي الميجور "فيليبوت" بطاقة بريدية قال لي فيها : أنا واثق أنك ستشعر بالأسى عندما تعرف أن "كلوديا هارديكاسل" قد لقيت حتفها بالأمس عندما سقطت من

فوق ظهر حصانها .. "كلوديا" ماتت ؟

لم أستطع أن أصدق ! سرت في بدني رجفة .. شخصان يموتان خلال أسبوعين أثناء ركوب الخيل .. مصادفة غريبة ..

لا أريد أن أركز على الفترة التي قضيتها في نيويورك .. لأنني كنت غريباً في عالم لا أمت له بصلة .. إن "إيللي" التي كانت تخصني لم تكن هناك .. لم أعد أراها الآن سوى فتاة أمريكية ..

وريثة لثروة ضخمة محاطة بأصدقاء وأقارب من بعيد ، فرد من أسرة عاشت هناك لمدة خمسة أجيال .. وقد عادت الآن إلى موطنها لتدفن مع أسلافها .. ارتحت لذلك الخاطر لأنني ماكنت أشعر بالراحة لو أنها دفنت في مقبرة صغيرة في غابة الصنوبر على حافة القرية .. كلا .. ما كنت لأعرف طعم الراحة .. وهمست لنفسي في أسي :

- عودي إلى حيث تنتمين يا "إيللي" ..

ورنت في أذني الأغنية التي سمعتها تغنيها :

في كل ليلة وفي كل صباح .
يولد البعض في أحضان السعادة والهناءة ..
وفكرت .. هذا صحيح بالنسبة لك يا "إيللي" .. لقد ولدت للسعادة والهناءة ..
عرفت السعادة والهناءة في أرض الفجر إلا أن تلك السعادة لم تدم طويلاً ..
وقد انتهت الآن .. وقد عدت إلى المكان الذي لم تعرفني فيه كثيراً من السعادة ..

ولكنك في وطنك على أية حال .. أنت بين قومك ..

فكرت فجأة .. ترى أين أكون عندما أموت ؟ في أرض الفجر ؟

ربما .. ربما جاءت أمي لتراني وأنا أوارى التراب إذا لم تكن قد ماتت قبلي .. ولكنني لا أستطيع أن أفكر فيها ميقية .. الأسهل أن أفكر في موتي أنا .. نعم ..

قد تأتي لتحضر دفني .. وربما لانت قسمات وجهها .. طردت تلك الخواطر ..

لا أريد أن أفكر فيها .. لا أريد أن أقرب من أمي أو أراها ..

والمالية سوف يفعل كل ما يستطيعه لأنني زوج "إيللي" .. وقعت له على الأوراق المطلوبة .. وسألني عن الطريقة التي سأعود بها إلى إنجلترا ، وأخبرته أنني سأركب الباخرة لحاجتي إلى بعض الوقت أخلو فيه لنفسي ..
ثم سألتني : وأين سيكون مقرك ؟ قلت : في أرض الغجر ..
- كنت أتخيل أنك سوف تعرض ذلك المكان للبيع ..

وقلت له : كلا .. قلت الكلمة بقوة .. لم أكن أستطيع الافتراق عن أرض الغجر .. كانت أرض الغجر جزءاً من حملي .. الحلم الذي لم يفارق خيالي منذ نعومة أظفاري ..

سألني عما إذا كنت قد عهدت لأحد بالإشراف على أرض الغجر أثناء غيابي ، وقلت له إنني عهدت "جريتاً" بهذه المهمة ، وقال "لبنكوت" : أه .. نعم .. "جريتاً" ..

كان نطقه بكلمة "جريتاً" يحمل معنى خاصاً .. كان يكره "جريتاً" على الدوام ، وقلت :

- كانت معاملتها لـ "إيللي" طيبة للغاية .. سهرت على تريضها عندما مرضت .. وجاءت لتقييم معها وترعاها .. إنني لا أملك إلا أن أشعر نحوها بالامتنان . أريد منك أن تفهم هذا .. لا تستطيع أن تتخيل مساعداتها ، وكيف باشرت كل شيء بعد موت "إيللي" .. لا أدري ماذا أفعل وحدي وقال المستر "لبنكوت" :

تماماً .. تماماً .. كانت لهجته جافة للغاية .

وقلت : هكذا ترى أنني مدين لها بالشيء الكثير ..

وقال مستسلماً : حقاً إنها فتاة على درجة عالية من الكفاءة . وقفت وعبرت له

عن شكري ، وقال : كتبت لك رسالة قصيرة .. أرسلتها لك بالبريد الجوي على

أرض الغجر ، وإذا كنت مسافراً بالبحر فسوف تجد الرسالة في انتظارك ..

أتمنى لك رحلة طيبة . سأنته بعد تردد عما إذا كان يعرف زوجة

"ستانفوردلويدي" .. فتاة تدعى كلوديا هاردكاسل" .. وقال :

- أه .. تعني زوجته الأولى .. كلا .. لم أقابلها قط .. أعتقد أن زواجهما لم

ولكن هذا الخاطر الأخير ليس صحيحاً .. لأن أمي كانت هي التي تسعى دائماً لرؤيتي ..

تخترق نظراتها أعماق نفسي .. إن الأمهات شياطين .. لماذا يشعرون أنهم يعرفون كل شيء عن أبنائهم ؟ إنهم لا يعرفون .. كان يجب أن تغخر أمي بي ..

وأن تكون سعيدة للحياة الرائعة التي حققتها .. كان ينبغي - عندئذ طردت تلك الخواطر من ذهني مرة أخرى .. كم من الوقت قضيت في أمريكا ؟

لا أستطيع أن أتذكر .. لقد أمضيت وقتاً رهيباً تحاصرني فيه الأنظار وتترصد حركاتي . وجوه تبسّم ابتسامات مزيفة وعيون تنبض بالحقد .. وظللت أردد

طوال الوقت كلمتين لم أتوقف قط عن ترديدهما .. أنا أريد ..

كان كل واحد يتظاهر بالرقعة معي لأنهم يعرفون أنني غني ! وفقاً لوصية "إيللي" كنت رجلاً واسع الثراء .. أمتلك أسهماً وسندات وعقارات .

ولم أكن أعرف ماذا أفعل بكل تلك الممتلكات ..

دار حديث طويل بيني وبين المستر "لبنكوت" في اليوم السابق لعودتي إلى إنجلترا أخبرته أنني أريد سحب التوكيل الصادر لـ "ستانفوردلويدي" الخاص

باستثمار الأموال ؟ وقال بدهشة : حقاً ! لم أدر على وجه التحديد ما يعنيه بذلك التعليق .. سأنته عما إذا كان تصرفي هذا سليماً ، وقال :

- لا شك أن لديك أسباباً وجيهة ..

وقلت له : كلا ... ولكنه مجرد إحساس .. إحساس بأنه لص ..

وقال "لبنكوت" باهتمام : نعم .. أعتقد أن إحساسك له ما يبرره ..

أدركت في تلك اللحظة أنني كنت محقاً .. كان "ستانفوردلويدي" يعبث باستثمار "إيللي" ..

ووقعت لـ "لبنكوت" على مستند لإلغاء التوكيل ليقوم هو بالعمل ؟ وسألته عما إذا كان يوافق وقال : إنني أستطيع أن أعتد عليه وأوليه كامل ثقتي ، وأنه سيبدل قصارى جهده ليثبت أنه أهل لهذه الثقة ..

فهمت من لهجة حديثه أنه يكرهني وأنه لم يحبني قط ، ولكنه من الناحية

تلك كانت آخر مرة رأيت فيها "سانتونكس" .. كنت أحب أن أقول له مرة أخرى إن البيت الذي شيده لي أفضل شيء حصلت عليه في الدنيا .. الشيء الذي يهمني ..

عجيب أن يكون لذلك البيت مثل هذا المعنى .. إنه رمز .. رمز لشيء تتوق إليه، ولاتعرف ما هو على وجه التحديد .. ولكن "سانتونكس" عرفه وأعطاني إياه .. ولقد حصلت على بنيتي .. وأنا في طريق العودة إليه .. العودة إلى البيت .. كان هذا كل ما أستطيع أن أفكر فيه عندما ركبت الباخرة ..

شعرت في البداية بتعب وممل شديد .. ثم غمرتني فجأة موجة من السعادة كأنما تصدر من الأعماق .. إنني عائد إلى البيت .. عائد إلى بيتي ..

يستمر طويلاً .. وبعد الطلاق تزوج للمرة الثانية وانتهى هذا الزواج بالطلاق أيضاً .. عندما عدت إلى الفندق وجدت برفقة في انتظاري .. كانت تطلب مني الذهاب إلى مستشفى في كاليفورنيا .. وكانت تقول إن صديقاً لي اسمه "رودلف سانتونكس" يرجو ذلك ، وإن ساعاته باتت محدودة ويتمنى أن يراني قبل موته ..

غيرت الحجز إلى سفينة تالية وركبت الطائرة إلى سان فرانسيسكو .. كان "سانتونكس" لا يزال حياً ولكن حالته كانت تتدهور بسرعة .. قيل لي إنه قد لا يفيق من غيبوبته قبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، ولكنه ألح في استدعائي .. جلست بجوار سريره أراقبه .. كان يبدو معتل الصحة دائماً .. وكانت لديه شفافية ورقة .. جلست وأنا أهمس لنفسي : كم أتمنى لو أنه كلمني .. أتمنى أن يقول لي شيئاً .. مجرد شيء قبل موته ..

أحسست بوحدة موحشة .. لقد هربت الآن من الأعداء وأنا الآن بجوار صديق هو الصديق الوحيد في الواقع .. كان الشخص الوحيد الذي يعرف عني شيئاً فيما عدا أمي .. ولكنني لم أكن أريد التفكير في أمي ..

تحدثت مع الممرضة وسألتها عما إذا لم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا شيئاً من أجله ، ولكن الممرضة هزت رأسها وقالت : -

ربما أفاق من غيبوبته وربما لم يبق .. جلست في ترقب .. ورأيت في النهاية يتململ في رقدته ويتنهد .. رفعت الممرضة برفق شديد .. نظرت إلي "سانتونكس" ، ولكنني لم أدري ما إذا كان قد عرفني أم لا .. كان ينظر تجاهي وكأنما تتجاوزني نظراته .. ثم التمت عيناه فجأة بالبريق وخيل إلي أنه عرفني وأنه يراني .. انفرجت شفثاه وتمتم بكلمات مبهمه .. انحنيت لأسمعه ولكن الكلمات لم تفصح عن أي معنى .. ثم ارتعد جسمه فجأة وأرجع رأسه إلى الخلف وصاح بعنف قائلاً : أيها الشيطان الأحمق .. لماذا لم تسلك الطريق الأخرى ؟

انهار دفعة واحدة وسكنت حركته إلى الأبد .. لم أعرف ما يقصده .. ولا أدري ما إذا كان هو نفسه كان يعرف ما يقوله ..

الفصل الخامس عشر

نعم .. هذا ما كان في نيتي أن أفعله .. انتهى الآن كل شيء . آخر مرحلة في المعركة .. آخر مرحلة في الصراع .. المرحلة الأخيرة للرحلة .. خيل إلي أن وقتاً طويلاً جداً قد انقضى منذ شبابي القلق .. أيام كانت أمييتي : أنا أريد .. أنا أريد .. ومع هذا لم يزد عمر هذه الفترة على عام .. اجتزت كل العقبات .. فكرت في ذلك وأنا راقد في كابينيتي .. اللقاء مع "إيللي" .. الأوقات التي قضيناها معا في "ريجننت بارك" .. زواجنا في مكتب موثوق العقود .. البيت .. البيت الذي بناه "سانتوكس" ..

بيتي .. البيت الذي أصبح ملكاً لي وحدي .. كما أردت تماماً .. لقد حصلت على كل ما تمنيت هائلاً ذاهب إليه ..

كُتبت رسالة قبل مغادرة نيويورك أرسلتها بالبريد الجوي لـ "فيليبوت" .. داخلني إحساس أن "فيليبوت" سوف يفهم في حين لا يفهم الآخرون .. كان الأسهل أن أكتب له .. كان لا بد له أن يعرف على أي حال .. لا بد أن يعرف الجميع .. لقد رأى بنفسه الرابطة الوثيقة بين "إيللي" و"جريتتا" وكيف كانت "إيللي" تعتمد على "جريتتا" ..

وفكرت في أنه ولاشك قد أدرك كيف أصبحت أنا أيضاً أتعتمد على "جريتتا" ، واستحالة حياتي وحدي في البيت الذي عشت فيه مع "إيللي" ما لم يكن هناك من يساعدي .. لا أدري ما إذا كنت قد أوضحت الموضوع جيداً .. ولكنني فعلت بقدر ما أستطيع . كُتبت إليه أقول : "أحب أن تكون أول من يعرف .. فقد كنت رقيقاً معي ، وأعتقد أنك الإنسان الوحيد الذي يفهم .. لا أستطيع أن أتحمل الحياة وحدي في أرض الفجر . وقد فكرت طوال مدة إقامتي في أمريكا ، وقررت أن أطلب من "جريتتا" الزواج بمجرد عودتي إلى البيت .. إنها الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أتحدث معه عن "إيللي" .. ربما لم تقبل الزواج مني .. ولكنني أعتقد أنها ستوافق .. سوف يجعل ذلك كل شيء يبدو وكأن ثلاثتنا مازلنا نعيش معاً .."

كان المفترض أن تصل الرسالة قبل رجوعي بيومين .. وبينما كانت الباخرة تقترب من الشاطئ البريطاني تمنيت لو أن "سانتوكس" كان في انتظاري ليرى كل أحلامي وقد تحقق كل شيء أردته وخططت له .. لقد انتصرت على كل من يضمرون لي الحقد وينظرون إلي على أنني من طبقة أدنى .. هائلاً عائداً بالنصر .. إلى أشجار الصنوبر ، والمنحنى الخطر في الطريق إلى أرض الفجر .. إلى بيتي ! الحلم الذي راود خيالي وخططت له وأردته أكثر من أي شيء آخر في الحياة .. البيت وامرأة رائعة .. المرأة التي عرفتها دائماً والتقيت بها ذات يوم .. سوف نلتقي .. لقد عرفت منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها أنها لي وأنتي لها كلية وإلى الأبد .. والآن .. أخيراً .. عائداً إليها ..

لم يرني أحد عند وصولي إلى "كنجستون بيشوب" وصلت مع هبوط الليل ولم أكن أريد الالتقاء بأحد من القرية .. في هذه الليلة ..

أخطرت "جريتتا" بوقت وصولي وكانت في انتظاري .. أخيراً ! لقد أدينا أوارنا بمهارة .. إنني أضحك الآن وأنا أتذكر كيف تظاهرت بكرهها .. وعدم الرغبة في مجيئها والبقاء مع "إيللي" .. نعم .. كنت شديد الحذر .. وتكررت الشجار الذي اصطنعناه لكي تسمع "إيللي" صراخنا .. عرفتني "جريتتا" على حقيقتي منذ التقينا .. لم يتوهم أحدنا شيئاً عن الآخر .. كانت لها نفس عقليتي ورغباتي .. كنا نريد الدنيا بأسرها ولا شيء أقل من ذلك .. كنا نريد أن نتريع فوق قمة العالم .. كنا نريد تحقيق كل طموح ممكن .. كنا نريد كل شيء .. وألا نحرم أنفسنا من شيء .. أذكر كيف صارحتها بكل ما في أعماق نفسي عندما التقيت بها لأول مرة في هامبورج .. لم أخف عنها شيئاً من رغباتي المحمومة ونهمي للحياة .. وكان لديها نفس الأطماع ، وقالت لي :

- حتى تحقق كل ما تروجه من الحياة .. لا بد لك من الحصول على المال .. وقلت لها : نعم .. ولكنني لا أعرف السبيل للحصول عليه ..

وقالت : لن تحصل عليه بغير العمل الشاق .. وأست من هذا الصنف ..

قلت : العمل ! معنى هذا أن أعمل سنوات طويلة وأنا لا أريد الانتظار حتى

المتصرفة العمر .. حتى يشيب شعري .. أريد المال الآن وأنا في شبابي وقوتي .. وأنت أيضاً .. أليست هذه رغبتك ؟

قلت لها : هل تخلنين أنني أهتم بالفتيات ؟ هناك فتاة واحدة أريدها .. أنت .. وأنت تعرفين ذلك .. عرفت ذلك منذ اللحظة الأولى .. ونحن نريد نفس الأشياء ..

قلت لها : إن الأمر سهل .. كل ما علي أن أفعله .. أن أتزوج فتاة غنية .. واحدة من أغنى فتيات العالم ، وأنها تستطيع أن ترتب لي لقاء معها ..

وقلت لها إنها خيالية . لأنني لأريد زوجة غنية تشتري لي ما أريده وتحقق رغباتي ولكنها تسجنني في قفص من ذهب .. تقيدني كالعبد بالسلاسل ..

فقلت إن الأمر لن يكون كذلك ، لأنك لن تعيش معها طويلاً .. فالزوجات يمتن .. حملت في وجهها دهشاً فقالت :

أراك صدمت .. لم أكن أتوقع أن تصدم ..

لم أجبها بشيء .. فقد كنت ما أزال أحب أن تبقى في صدري بعض الأسرار ..

أذكر في شبابي أن صديقاً لي في المدرسة أهديت له ساعة .. أحببت أن أملك تلك الساعة .. كانت غالية الثمن .. خرجت مع صديقي ذات يوم لنتزلق على الجليد ..

لم يكن الجليد سميكاً حتى يتحمل ثقل أجسامنا .. تشقق الجليد حيث تزحلق صديقي وسقط في الماء ورأيتَه يتعلق بالحافة والتج يتكسر بين يديه ..

أسرعت نحوه ورأيت الساعة تلمع في يده .. همست لنفسي :

فلنفترض أنه غاص ومات . خطرت الفكرة على ذهني بسرعة .. نزعمت الساعة من يده ودفعت رأسه تحت الماء بدلاً من رفعه .. لم يستطع أن يقاوم تحت سطح الجليد .. شاهدنا بعض الناس وأقبلوا نحونا وظنوا أنني أحاول انتشاله .. واستطاعوا انتشاله بصعوبة وحاولوا إجراء تنفس صناعي له ولكن

الساعة ذات يوم وسألتني :

أليست هذه ساعة "بيتر"؟ قلت .. كلا .. قايمت عليها مع زميل في المدرسة .. كنت أشعر بالعصبية دائماً وأنا أواجه نظرات أمي ..

أحسست بالارتباك عندما عثرت على الساعة .. أعتقد أنها شكت في الأمر .. وكانت ترمقني بنظراتها دون أن تتكلم .. كان الجميع يعتقدون أنني حاولت إنقاذ "بيتر" ..

ولكنني كنت أحس أنها لم تصدق .. كنت أحس في بعض الأوقات بالذنب .. ولكنني سرعان ما تغلبت على ذلك ..

حدث بعد ذلك أثناء تأدية الخمة العسكرية أن خرجت مع زميل يدعى "أيد" .. ذهبنا معاً إلى أحد أندية القمار وكان حظي سيئاً وفقدت كل ما معي من نقود ، في حين ربح "أيد" مبلغاً كبيراً .. خرجنا من النادي وجيوبه منتفخة ..

وتصدى لنا رجلان مسلحان بالخناجر وأصبت بطعنة في يدي ، بينما أصيب "أيد" إصابة غير مميتة في صدره ووقع على الأرض .. سمعنا صياح بعض الناس وعندما رآهم اللسان سارعاً بالفرار .. فكرت بسرعة .. تذكرت "بيتر" ..

كان رد الفعل السريع من المزايا التي أتميز بها .. فزعت الخنجر من صدر "أيد" وطعنته طعنتين قاتلتين .. وأفرغت ما في جيبه من مال ونقلتها إلى جيوبتي في لمح البصر .. يصاب بعض الأشخاص بالفزع عندما يرتكبون جريمة قتل .. ولكنني لم أفزع .. ليس في هذه المرة ..

لا أدري كيف استشعرت "جريتاً" ذلك في .. لا أقصد أنها عرفت أنني قتلت نفسي ، ولكنني أعتقد أنها عرفت أن فكرة القتل لاتصدمني .. وقلت لها :

ما هذه القصة الخيالية يا "جريتاً" .. وقالت :

إنني في مركز أستطيع معه مساعدتك .. أستطيع أن أدبر لك لقاء مع واحدة من أغنى الفتيات الأمريكيات .. أنا مسؤولة إلى حد ما عن رعايتها .. أنا أعيش معها ولبي تأثير كبير عليها ..

سألتها : وهل تعتقدين أنها تنظر إلى واحد مثلي ؟ وقالت إنني أمتلك قدراً كبيراً من الجاذبية وأن الفتيات يقعن في حبي بسهولة .. أخبرتني 'جريت' أن الفتاة نشأت في ظل تربية صارمة تحرمها من لقاء الشباب الغرباء خوفاً من طمعهم في ثروتها .. وأنه لم يكن يسمح لها إلا بمقابلة أبناء مديري البنوك وكبار رجال الأعمال .. وأن الفتاة تتمنى معرفة شاب يحبها .. شاب من طراز لم تعرفه من قبل وأنني أستطيع أن أمثل أمامها دور العاشق الولهان وأوقعها في حبي وأتزوجها ..

وعندما قلت إن أسرتها لن تسمح بذلك قالت إن الأسرة لن تعرف شيئاً حتى تجد نفسها أمام الأمر الواقع .. وقلت لها :

إذن فهذه هي فكرتك ؟

تحدثنا في التفاصيل وأعدنا خططنا .. سافرت 'جريت' إلى أمريكا ولكنها ظلت على اتصال بي .. وتنقلت بين بضع وظائف وحدثتها عن أرض الفجر ورغبتني في تملكها .. وقالت إنه مكان يصلح كبداية لقصة رومانسية .. وخططنا لكي يتم لقائي مع 'إيللي' هناك .. على أن تعمل 'جريت' على إقناع 'إيللي' بشراء بيت في إنجلترا لتعيش فيه بعيداً عن أهلها بمجرد بلوغها سن الرشد .. أوه .. نعم .. أعدنا الخطة .. وكانت 'جريت' ماهرة في التخطيط .. لا أعتقد أنني كنت أستطيع ذلك وحدي وإن كنت أعرف أنني أستطيع أن ألعب دوري بإتقان .. كنت أشعر بالمتعة دائماً وأنا أمثل دوراً .. وهكذا تم اللقاء بيني وبين 'إيللي' .. كانت مهزلة ولكنها جنونية لأنها محفوفة بالمخاطر. فمن الممكن أن تفشل اللعبة .. وكان الشيء الذي يؤثر أعصابي أنني كنت مضطراً للقاء مع 'جريت' في بعض الأوقات .. واتفقنا على أن أتظاهر بكرهها والغيرة منها .. ونفذت ذلك بنجاح .. أذكر يوم اختلقت شجاراً معها لتسمع 'إيللي' صراخنا ..

لا أدري ما إذا كنا قد بالغنا في ذلك بعض الشيء .. كنت أحياناً أشعر بالقلق خشية أن تكون 'إيللي' قد ارتابت في شيء .. كان اكتساب قلب 'إيللي' سهلاً .. كانت فتاة رقيقة حلوة .. إلا أنني كنت

أخشاهما في بعض الأحيان لأنها تفعل أشياء دون أن تخبرني .. وأنها كانت تعرف أشياء لم أكن أتصور قط أنها تعرفها .. ولكنها أحببتني .. نعم .. أحببتني .. وأعتقد أنني أنا أيضاً أحببتها ..

لا أعني أنها كانت مثل 'جريت' .. كانت 'جريت' المرأة التي تخصني .. كانت تتميز بالأنوثة والجاذبية .. كنت أحبها بجنون وأحاول أن أكبت مشاعري .. أما 'إيللي' فقد كانت شيئاً آخر .. استمتعت بالحياة معها .. نعم .. ربما بدا ذلك غريباً وأنا أعود بالذاكرة إلى الماضي .. لقد استمتعت بالحياة معها إلى أبعد حد .. إنني أسجل هذا الآن .. لأن هذا ماكنت أفكر فيه ليلة عودتي من أمريكا .. عندما رجعت وأنا أترعب على قمة الدنيا وقد امتلكت كل ماكنت أتوق إليه على الرغم من كل المخاطر .. وعلى الرغم من أنني ارتكبت جريمة جيدة .. كانت خدعة تمت بنجاح وقد انتهى الآن كل شيء .. إنني عائد إلى أرض الغجر .. مثل ذلك اليوم بعد رؤية إعلان بيع البيت .. عند المنحنى رأيتها .. أعني 'إيللي' .. كانت واقفة تحت ظل شجرة الصنوبر .. ارتاعت عندما رأته مثلما ارتعت عند رؤيتها ..

وقف كل منا ينظر إلى الآخر برهة ثم بادرتنا بالحديث وقمت بتمثيل دور الشاب الذي وقع في الحب من أول نظرة .. ومثلت الدور ببراعة ! أؤكد لك أنني ممثل بارع !

ولكنني لم أتوقع أن أراها الآن .. أعني .. لم يكن باستطاعتي أن أراها الآن .. وكيف أستطيع ؟ ولكنني كنت أراها .. كانت تنظر إلي .. إلا أن شيئاً أفرغني كثيراً .. كانت ترمقني بنظراتها ولكنها لاتراني ..

ليس من المعقول أن تكون هنا .. أعرف أنها ميتة ولكنني رأيتها .. لقد ماتت وبغنت في أمريكا .. ورغم هذا فقد كانت واقفة تحت شجرة الصنوبر كأنما تنتظر حضوري ، كان وجهها يعبر عن الحب .. نفس الحب الذي رأته ذات يوم وهي تعزف على الجيتار ..

تسمرت في مكاني وأنا أرتجف وصحت قائلاً 'إيللي' .. لم تتحرك من مكانها ظلت واقفة ترمقني بنظراتها .. نظرة مباشرة تنفذ مني .. كان ذلك ما أفرغني

مكان آخر ؟

وقالت "جريتاً" : لانستطيع أن نعيش فيه طول الوقت .. لن نقضي العام كله مدفونين في جحر كهذه القرية ..

قلت لها إنه المكان الذي تمنيتك وأردت أن أعيش فيه ، وقالت إن لدينا المال الذي يكفي للطواف حول العالم ويسمح لنا بالذهاب إلى حيث نشاء .. وسألتني : ألا تحب أن تحيا حياة المغامرة ؟

وقلت : بلى .. ولكننا سوف نعود إلى هذا المكان .. داخلني إحساس غريب بأن شمة خطأ قد حدث .. كان هذا هو كل ما فكرت فيه .. بيتي وبيت "جريتاً" .. لم تكن لدي رغبة في أي شيء آخر ولكنها كانت تتطلع إلى أشياء أخرى .. بدأت أرتجف وقالت "جريتاً" :

ماذا بك يا "مايك" .. إنك ترتجف .. هل أصبت بالبرد ؟

قلت لها : لا .. ليس الأمر كذلك .. لقد رأيت "إيللي" ..

قالت بانفعال : ما الذي تعنيه ؟ وقلت لها :

- بينما كنت أسير عند منحني الطريق رأيتها واقفة تحت شجرة الصنوبر تحرق في وجهي .. أعني تنظر تجاهي ..

وقالت "جريتاً" : لاتكن غيبياً .. أ .. كنت تتخيل الأشياء ..

قلت إن هذه أرض الفجر وقد رأيت "إيللي" وهي تبدو سعيدة وأنها بدت كما كانت وستبقى هنا دائماً .. هزئتني من كتفي بعنف وسألتني عما إذا كنت قد شربت شيئاً قبل وصولي وقلت مضطرباً :

- كلا .. انتظرت حتى ألقاك هنا .. كنت أعرف أنك أعددت لنا الشراب لنشرب معاً ..

وقالت : حسن .. إنس "إيللي" ولنشرب ..

قلت بعناد : لقد كانت "إيللي" .. وقالت إن ما رأيته كان خداع بصر .. وقلت بإصرار إنها كانت "إيللي" تنظر في اتجاهي ولكنها لاتراني .. وارتفع صوتي وأنا أقول :

- إنني لا أعرف لماذا لم تكن تراني ؟ ..

أطلقت لساقي الريح .. جريت كالمجنون .. كالجبان .. حتى رأيت الأضواء تتسرب من نوافذ البيت .. سيطرت على مشاعر الخوف وأنا أرى البيت .. بيتي .. عدت إلى الشيء الآخر الذي كنت أريده أكثر من أي شيء آخر في الدنيا .. إلى المرأة الرائعة التي كنت أنتمي إليها روحاً وجسداً ..

نستطيع الآن أن نتزوج ونعيش في البيت الذي لعبنا لعبتنا من أجله ، وانتصرنا دخلت من الباب المفتوح واتجهت إلى المكتبة حيث كانت "جريتاً" واقفة في انتظارني . كانت رائحة حلوة .. أحلى شيء رأيته في الوجود .. يتوهج شعرها الذهبي وتفوح منها رائحة الجمال ودعاء الجنس .. لقد حرمتنا أنفسنا من متعة اللقاء فيما عدا لحظات كنا نختلسها في المبنى الذي يشبه المعبد .. ارتيمت بين ذراعيها .. لقد كانت تلك أروع لحظات حياتي ..

جلست ودفعت إلي مجموعة من الخطابات .. اخترت من بينها خطاباً عليه طابع بريد أمريكي .. كان الخطاب الذي أرسله "لينكوت" .. وقالت "جريتاً" : حسن .. لقد نجحنا .. وقلت : نعم .. هذا يوم النصر ..

ضحكنا معاً .. ضحكة وحشية .. كانت زجاجة الشراب تنتظرنا فوق المائدة .. فتحتها وشرب كل منا نخب الآخر .. وقلت : هذا المكان رائع .. إنه أجمل مما كنت أتخيل "سانتونكس" .. أه .. نسيت أن أخبرك أن "سانتونكس" مات .

وقالت "جريتاً" : أوه .. يا للأسف .. إذن فقد كان مريضاً بحق ؟

أخبرتها أنني ذهبت لزيارته ورأيت أنه وهو يلفظ آخر أنفاسه ، وسألتني عما إذا كان قد قال شيئاً ما وقلت :

- لم يقل شيئاً في الواقع .. قال إنني شيطان أحمق .. وأنه كان يجدر بي أن أختار الطريق الأخرى ..

سألتني عما كان يقصده بذلك وقلت إنني لا أعرف وأنه ربما كان محموماً لا يدري ماذا يقول ..

- حسن .. هذا البيت يعتبر أثراً لتخليد ذكراه .. سوف نتمسك به .. أليس كذلك ؟ حملقت في وجهها وقلت : بالتأكيد .. هل تعتقدون أنني سأعيش في

سألتني عما أقصده وقلت بصوت هامس :
- لأنني لم أكن الواقف أمامها .. لم أكن هناك .. يولد البعض للفرح
والسرور .. ويولد البعض الآخر الليل ليس له آخر .. هل تذكرين كيف كانت
تجلس على هذه الأريكة وتعزف على الجيتار وهي تغني بصوتها الناعم .. لاشك
أنك تذكرين .. نعم .. يولد البعض لليل ليس له آخر .. هذا ما كانت تعرفه أُمي
عني .. كانت تعرف أنني ولدت لليل ليس له آخر .. كذلك كان "سانتونس"
يعرف .. أنني أسير في ذلك الاتجاه .. وكان يمكن تجنب هذه اللحظة .. كنت
أستطيع أن أعيش مع "إيللي" في سعادة بعد زواجنا ..

وقالت "جريتتا" محتدة : كلا .. لم أكن أتصور أنك من الطراز الذي يفقد
أعصابه .. حملت في وجهها وقلت :- أنا أسف يا "جريتتا" .. ماذا كنت أقول؟
- لاشك أنهم حطموا أعصابك في أمريكا .. ولكنك اجتزت التجربة بنجاح ..
أعني .. هل اطمأنتت على كل الاستثمارات ؟
- تم تحديد كل شيء .. سويت كل الأمور لصالحنا .. لمستقبلنا الرائع ..
- أنت تتكلم بطريقة بالغة الغرابة .. أريد أن أعرف ماذا قاله "لبنكوت" في
خطابه ..

فتحت الظرف ولم يكن بداخله سوى قصاصة من إحدى الصحف القديمة ..
كانت صورة لشارع أعرفه حيث يبدو في الخلفية مبنى ضخم .. كانت صورة
شارع في مدينة هامبورج حيث يتجه بعض المارة نحو المصور .. ويبدو في
المقدم شخصان يتأبط كل منهما نراع الآخر .. وكنت أنا أحدهما .. أما الآخر
فهو "جريتتا" .. إذن فقد عرف "لبنكوت" .. كان على علم طول الوقت أنني كنت
أعرف "جريتتا" من قبل .. لاشك أن أحدهم أرسل إليه تلك القصاصة .. وتذكرت
كيف ألح علي "لبنكوت" بالسؤال عما إذا كنت قد التقيت بـ "جريتتا" من قبل ..
أنكرت ذلك بالتأكيد ولا بد أن شكوكه قد بدأت عندئذ .

شعرت فجأة بالخوف من "لبنكوت" .. لا أعتقد أنه يشك في أنني قتلت
"إيللي" .. ورغم هذا فهو يرتاب في شيء .. وقلت لـ "جريتتا" : كان يعرف طول
الوقت أنني أكره ذلك الثعلب العجوز .. وأنه يبادلني كرها بكره .. وعندما يعرف

- ليل ليس له آخر !
طلبت مني "جريتتا" بعصبية أن أتوقف عن ترديد هذه الكلمات .. وعدم
الاستسلام لتلك الخرافات ، وقلت لها :

- لاحيلة لي .. لقد بعث روعي إلى أرض الغجر .. لن تكون أرض الغجر
مكانا آمنا ..

لم تكن آمنة لأحد من قبل .. لم توفر الأمان لـ "إيللي" ولن توفره لي .. أولك ..
سألتني عما أعنيه .. وقفت واتجهت نحوها .. لقد أحببتها .. نعم .. ومازلت
أحبها بكل نوافع الرغبة الجنسية المحمومة ولكن أليس الحب والكره والرغبة
شيئاً واحداً ؟

واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد .. لم يكن باستطاعتي قط أن أكره "إيللي"
ولكنني كرهت "جريتتا" .. وكنت أستمتع بكرهها .. كنت أكرهها بكل قلبي وبِرغبة
محمومة ..

لم يكن باستطاعتي أن أنتظر حتى أستخدم أساليب أكثر أمانا .. اقتربت
أكثر منها وقلت : أيتها الكلبة القنرة ! أيتها الكلبة ذات الشعر الذهبي .. لست
في أمان يا "جريتتا" .. لست آمنة مني .. هل تفهمين ؟ لقد تعلمت كيف أستمتع
بقتل الآخرين .. أحسست بتوتر في ذلك اليوم الذي ركبت فيه "إيللي" جوادها
لتلقى حتفها .. أحسست بالمتعة طوال فترة الصباح .. متعة القتل .. ولكنني لم

الفصل السادس عشر

لا يوجد شيء كثير أرويه بعد ذلك .. جلست فترة طويلة ولا أنري متى وصلوا .. ولا أعرف ما إذا كان الجميع قد وصلوا في وقت واحد ..

لاحظت أن "المعبود" جاء أولاً . أعني "فيليبوت" .. كنت أشعر بالميل نحوه دائماً .. وكان يشبه السيد من بعض النواحي .. فقد كان شديد العطف ، يحاول أن يفعل أفضل الأشياء للناس ..

كما ذكرت .. جلست بعد قتل "جريتتا" فوق المقعد أحلق في كأس الشراب وقد كان فارغاً .. كان كل شيء فارغاً .. لم يكن يضئ الغرفة سوى مصباح كهربائي واحد في ركن الحجرة وكانت الشمس قد غربت منذ وقت طويل .. جلست وأنا أتعجب ، ترى ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ ثم بدأ الناس يتوافدون .. جاؤا بمنتهى الهدوء . لو أن "سانتونكس" كان موجوداً لأخبرني بما ينبغي لي أن أفعله .. ولكنه مات .. لاحظت بعد برهة وصول دكتور "شو" .. جلس بجواري في هدوء كأنه ينتظر شيئاً .. فكرت بعد قليل أنه ينتظر مني أن أتكلم ، وقلت له : لقد عدت إلى البيت ..

كان هناك شخص أو شخصان يتحركان خلفي في انتظار أن يفعل الطبيب شيئاً ، وقلت : - ماتت "جريتتا" .. لقد قتلتها .. ربما كان من الأفضل أن تبعوا الجثة .. هل فعلتم ذلك ؟

رأيت ضوئاً ساطعاً يخمر الحجرة .. ربما كان أحد مصوري الشرطة يصور الجثة .. وقال "شو" بحدة : ليس بعد ..

حلق الطبيب في وجهي ، وقلت له : لقد رأيت إبلي "الليلة" .. وسألني : أين ؟ وقلت له :

في الخارج تحت شجرة صنوبر .. في المكان الذي التقيت معها فيه أول مرة .. لم ترني .. لم يكن باستطاعتها أن تراني لأنني لم أكن موجوداً .. ضايقتني ذلك .. ضايقتني كثيراً ..

وقال دكتور "شو" : كان الزئبق في الكبسولة .. أليس كذلك ؟

أقترب من قبل قط من الضحية .. ولكن الوضع مختلف الآن .. أريد أكثر من مجرد معرفة أن شخصاً سوف يموت نتيجة لابتلاعه كبسولة في الفطور .. أريد أكثر من دفع سيدة عجوز من فوق الحافة في المحجر .. أريد أن أستخدم يدي ..

كانت "جريتتا" خائفة الآن .. هي التي كنت أنتمي إليها منذ التقينا في هامبورج ذلك اليوم وادعيت المرض وتركت وظيفتي لأبقى بجوارها .. نعم .. كنت ملكاً خالصاً لها حينئذ .. روحاً وجسداً .. ولكنني لم أعد أنتمي إليها الآن .. كنت في طريقي إلى مملكة من نوع آخر .. المملكة التي كنت أحلم بها .. كانت "جريتتا" خائفة .. وأحببت أن أراها خائفة .. ضغظت بيدي حول رقبتها .. نعم .. حتى الآن وأنا جالس أكتب كل شيء عن نفسي - ولا أخفي عليك أنها متعة ليس بعدها متعة - أن يكتب الإنسان كل شيء عن نفسه والأحداث التي مر بها ، والمشاعر التي كان يحس بها ، والأفكار التي كانت تدور في رأسه ، وكيف كان يخدع الجميع .. نعم - كم هو رائع أن يفعل الإنسان ذلك .. نعم .. لقد كنت أشعر بسعادة غامرة وأنا أقتل "جريتتا" ..

وقال : بل صديق لـ "إيللي" .. لم أفهم لم يعد شيء مفهوما لي . ولكنني لم أستطع التخلص من إحساسي بالأممية .. الجميع هنا ! شرطة وأطباء و"فيليبوت" .. كان الأمر كله شديد التعقيد .. بدأت أفقد الإحساس بترايط الأشياء .. كنت متعبا للغاية وكان من عادتي أن أستغرق فجأة في النوم عندما يحل بي التعب .

جاء كثيرون ليروني .. بينهم محامون وأطباء .. مجموعة من الأطباء .. أمطروني بوابل من أسئلتهم ولكنني لم أكن راغبا في الإجابة .. استمر أحدهم يسألني عما إذا كنت أريد شيئا ، وقلت إنني أرغب في شيء واحد .. قلم حبر وورق كثير لأكتب كل شيء .. منذ بداية الأحداث .. أردت أن أحدثهم عما كنت أشعر به وكيف أفكر .. كنت أرى قصتي مسلية وسوف تكون مسلية للآخرين .. لأنني شخصية مسلية .. وقد فعلت أشياء مسلية .. الأطباء - أو طبيب منهم على الأقل - رأى الفكرة طيبة وقلت له : أنتم تسمحون للناس أن يدلوا باعترافاتهم لماذا لا تسمحون لي بكتابتها حتى يقرأها الجميع .

سمحوا لي بالكتابة .. لم أكن أستطيع الاستمرار في الكتابة لمدة طويلة لأنني سرعان ما أشعر بالتعب .. سمعت أحدهم يقول : عدم المسؤولية عن أفعاله .. واختلف معه طبيب آخر ثم كان علي بعد ذلك أن أقف أمام المحكمة .. وطلبت منهم أن يحضروا لي أجمل حللي لأنني أردت أن أظهر أمامهم في أبهى صورة .. بدا لي أنهم سبق أن وضعوا حولي بعض المخبرين الخصوصيين لمراقبة حركاتي .. وكذلك بعض الخدم الجدد .. اعتقد أن "لبنكوت" هو الذي قام بذلك .. اكتشفوا أشياء كثيرة عني وعن "جريت" .. شيء مضحك بعد أن ماتت ولم أعد أفكر فيها كثيرا لم تعد لها أدنى أهمية بالنسبة لي بعد أن قتلتها . حاولت أن أستعيد لحظة الانتصار وشعوري بالزهو وأنا أخنقتها .. ولكن حتى تلك المشاعر ولت ولم يعد باستطاعتي استعادتها .

أحضروا أمي لتراني فجأة ذات يوم .. وقفت تنظر إلي نظرات حزينة .. اكتفت بقولها : لقد حاولت يا "مايك" .. حاولت قدر استطاعتي أن أوفر لك الأمان ولكنني أخفقت .. كنت خائفة دائما من الفشل ...

كان هذا آخر ما أعطيت لـ "إيللي" ذلك الصباح .
وقلت : كانت كبسولة للحساسية .. كانت تأخذ واحدة قبل الركوب على سبيل الوقاية .. ألم تفحص بنفسك كل الأدوية التي كانت تتناولها عندما جئت لتفحص وكتبها ؟ وقال "شو" :

لاضرر في الأقراص .. كانت الأقراص غير ضارة بالمرة وقلت له :

لقد دبرنا الأمر معاً .. أنا و "جريت" .. ألم تكن عملية ذكية ؟

- لقد كنت ذكيا ولكن ليس إلى الدرجة المرجوة ..

- أيا كان الأمر .. لا أبري كيف عرفت ..

- عرفنا عندما وجدنا جثة أخرى .. الموت الذي لم تقصد أن يحدث ..

- "كلوديا هارد كاسل" ؟

- نعم .. ماتت بنفس الطريقة التي ماتت بها "إيللي" .. وكانت "كلوديا" تتمتع بصحة جيدة ولكنها سقطت من فوق ظهر الجواد وماتت .. في هذه الحالة تم العثور عليها بعد وقت قصير .. عثروا عليها بعد موتها مباشرة وكانت رائحة الزنبرغ لاتزال تفوح منها .. ولو أنها بقيت مثل "إيللي" في الهواء الطلق لمدة ساعتين لما ظهرت منها رائحة الزنبرغ .. لم أعرف كيف وصلت الكبسولة لـ "كلوديا" إلا إذا كنت تركت واحدة في مبنى المعبد الذي تعرف أن "كلوديا" تتردد عليه في بعض الأحيان عثرنا على بصمات أصابعها هناك كما أن ولاعتها الذهبية سقطت هناك ..

وقلت : لاشك أننا كنا مهملين .. هل اشتبهت في أن لي دخلا بموت "إيللي" ؟

كان ينبغي أن تحذرنني ..

- لست ضابط شرطة ..

- من أنت إذن ؟

- أنا طبيب !

قلت له إنني لست في حاجة إلى طبيب ، ثم التفت نحو "فيليبوت" وقلت له : ماذا تفعل ؟ اقترب حتى تشارك في محاكمتي .. وقال : أنا هنا كمجرد صديق وقلت له : صديق لي ؟

وقلت لها : حسن يا أمي .. لم يكن خطاك .. أنا الذي اخترت طريقي .. وتذكرت فجأة ما قاله "سانتونكس" .. كان خائفا علي ولكنه لم يكن يستطيع هو أو غيره مساعدتي .. أعتقد أن مشكلتي أنني كنت أريد أشياء كثيرة على الدوام .. أريدها بالطريق السهل .. طريق الجشع .. عندما قابلتنا "إيستر" .. أنا و"إيللي" .. وحذرتها من أرض الغجر .. نخلت الفكرة في ذهني .. العجربة المعجزة جمعة أستطيع إغرامها بالمال لكي تفزع "إيللي" وتتدخل في روعها أن خطراً ما يتهدد حياتها .. ظننت أن ذلك قد يصيب "إيللي" بصدمة تؤدي إلى الموت المفاجئ . ارتاعت "إيستر" للفكرة .. ارتاعت من أجل "إيللي" .. حذرتها ومطلبت منها الرحيل حتى لاتحوم حولها الشكوك .. لم أفهم ذلك .. وكذلك لم

تفهم "إيللي" .

أحسنت "إيللي" بخطر يتهددها .. وكان "سانتونكس" يعرف فوازع الشوك الكامنة في أعماقي .. مثل أمي تماما .. ربما كان ثلاثتهم يعرفون .. كانت "إيللي" تعرف ولكنها لم تكثرث . هذا غريب .. غريب جدا .. إنني أعرف السبب الآن .. لقد كنا في غاية السعادة معا .. كانت لدي الفرصة .. ربما كانت الفرصة تطرق باب كل إنسان مرة واحدة .. ولكنني أدت لها ظهري .. ليس غريبا أن "جريت" لم تعد لها أي أهمية .. وحتى بيتي الجميل لم تعد له أهمية إنها "إيللي" وحدها ولكن "إيللي" لا تستطيع أن تعثر علي مرة أخرى .. ليل ليس له آخر .. هذه هي نهاية قصتي .. في نهايتي توجد البداية .. هذا ما يقوله الناس دائماً .. ولكن ما معنى هذه الكلمات ؟ وأين بالضبط تبدأ قصتي ؟ يجب أن أحاول وأفكر .

تحياتي .. كونان دويل

www.liilas.com